زدني علما

دنيز پولم

الحضاراتُ الأفريقيّة

ترجمة
نسيم نصر

منشورات عويدات
بيروت - باريس

دنيز پولم

الحضارات الأفريقيّة

ترجمة
نسيم نصر

منشورات عويدات
بيروت - باريس

الطبعة الثالثة ١٩٨٨

مدخل [1]

مَن اخذ بعناد حُكم مسبق، فانه لا يرى للافريقيين ايّة مساهمة في العمل الحضاري العام : إذن، الافريقيون ليس لهم تاريخ . في حين انّه ليس في المؤرخين من ينكر وجود مدنيّات قديمة كانت منذ آلاف السنين في آسيا، وفي حين أن المغامرين الأُول من الاسبان، الذين كانوا يجدّون في إبادة هنود أميركا [2]، وقفوا مبهوتين امام عظمة الهياكل والقصور التي بناها هؤلاء « المتوحشون » . وقد بقي ماضي افريقيا في حكم الاهمال حتى الأمس القريب، إذ لم يتوفّر لافريقيا

---

(١) القارىء لن يبحث عن وثائق تتناول افريقيا الجنوبية في عرض خاص بالمدنيات الافريقية، يعني بسود افريقيا : من تاريخ، وسكان، وانواع الحياة، فالمغرب لا يظهر هنا الا للذكرى، في مقياس علاقاته بباقي القارة . مع العلم بأن مجلدات من سلسلة « زدني علماً ؟ » سبق لها ان تناولت تاريخ الجزائر الحديثة (ش . — روبير أجيرون) ؛ وتاريخ المغرب (ج . ل . مياج) ؛ وتاريخ تونس (ج . كلين) .

(٢) يعني سكان البلاد الاصليين؛ والكلمة مركبة من المقطعين : Amér — indiens هي التعبير الحديث . (المترجم) .

شيء ممّا نسمّيه علم الآثار . وواقع الامر انّ البربريّة الّتي أتّهم بها الافريقيّون كانت حصيلة الاحتقار الذي كان الاوروبيون، في اواخر القرن التاسع عشر، يواجهون به شعوباً تعاقبت اجيالها، وهي في حالة حرب وذعر دائمة .

والجغرافيّون، انطلاقاً من هذا المظهر البائس، الذي كانت تبدو فيه المجتمعات الافريقيّة، الحّوا على عزل هذه القارّة ؛ فشواطئها الّتي يحرقها الجفاف تفصلها عمّا حولها من بلاد : فعن اميركا يفصلها المحيط الاطلسي ، وعن آسيا يفصلها المحيط الهندي، ومجمل اليابسة الافريقيّة غارق في بحار الجنوب، لا يصله باوروبا وآسيا غير برزخ رمليّ ضيّق ؛ والبحر الاحمر لا يقدّم للرائي غير شواطىء حزينة ؛ أمّا واجهة افريقيا فهي سواحلها القائمة على شاطىء المتوسط، المنفتحة للعلاقات التجارية، ولكنها ليست متوزّعة على الشاطىء كلّه ؛ لأن هناك موقعين يُعرفان بـ «سيرت[1] » لا يصلحان لاستقبال المراكب البحريّة . وهكذا يؤكّدون انه لم يكن في افريقيا كلها غير رقعة شاطئية دقيقة لامست مدنيّة حوض البحر المتوسّط .

---

(١) سيرت الكبيرة على الشاطىء الليبي، وسيرت الصغيرة على الشاطىء تونسي (المترجم) .

وقد عُرفت الشواطىء الافريقيّة بصفتها غير الملائمة لاستقبال المراكب، فهي : إمّا ذات منحدرات مليئة بالنواتىء وامّا مسطّحة تتخلّلها بحيرات، وكثبان رمال، ومنعطفات من الارض الموحلة ؛ وعلى الجملة، فانها لا تقدّم ايّ مرفـــأ طبيعي؛ وهناك ايضاً خلف هذه الشواطىء برّ مخيف يجعل مدانانها اكثر صعوبةً، لأنه مزروع بالفخاخ الطبيعيّة . ولهذه الشطوط مصاعب أخرى، فهي متقطّعة، فقيرة بالرؤوس، وبالخلجان ؛ وبعضها بينه وبين الاماكن الآهلة أكثر من ١٨٠٠ كيلومتر من المسافة الفاصلة .

وكذلك تبدو مصاعب الدخول إلى قلب البلاد كثيرة لكثرة ما يعترض الداخل من فقدان الارض المستوية : فكثير من شبّهوا هذه القارة السوداء بجرن هائل الضخامة ـ مسطّح الوسط، مرتفع الضفاف؛ على عكس ما هي عليه حال آسيا او اوروبا، حيث تشغل الوسط المنخفضات وتقوم على الجوانب المرتفعات . بينما الألب او التيبت : هذا يقوم في آسيا وذاك في أوروبا ليفجّرا أنهراً ممتعة تروي، وهي في مجاريها إلى الشواطىء، سهولا فسيحةً منحدرةً انحداراً خفيفاً نحو البحر، بينما نرى الجبال الشاطئيّة في افريقيا وكأنها تردّ إلى الاوقيانوس المياه التي تجري من جوانبها ؛ او كأنها تفرض منعرجات طويلة على مجاري الانهار داخل البلاد، من مثل ما يحدث

لنهر النيجر او نهر الكونغو، قبل ان تفسح المجال لمائج من المجرى صالح للملاحة. وغالباً ما نرى انّ شبكة نهريّة لا تنتهي إلاّ إلى منحدر خفيف الانحدار في داخل البلاد : وهذه حال نهر شاري – لوغون الذي يتلاشى دون طائل في التشاد. ونرى أيضاً الهضبة الافريقيّة، على كل شاطئها الغربيّ، ينعكس اتجاهها عند مداناتها الاوقيانوس وتقدّم، على مقربة من الشاطىء التفافات جبليّة حسبها المكتشفون «sierras» [1] اي سلاسل جبال بينما هي ليست كذلك قطعاً. وتبعاً لهذا الوجه الارضي غير المنطقي، تبدو الأنهر الكبيرة الافريقيّة، على غير ما هي عليه الأنهر الكبيرة في القارّات الأخرى، طرق مواصلات داخليّة ؛ فهي في افريقيا قوية غير مستوفية اسباب القوّة موجّهة ولكن عكسياً، لذلك تنتهي بسالكها إلى نقطة لا يمكن اجتيازها ؛ شلاّلات النيل، ومندلقات الكونغو، ومهاوي زامبيز، كما انها تقوم كحواجز تعترض طريق المسافرين.

وتُضاف إلى حواجز الأرض الوعثاء الموانع المناخيّة التي تحول دون إقبال الاوروبيين على تحمّل مناخ مغاير المناخ الذي تعوّدوه : فهنا جفافٌ صحراوي، وهناك رطوبة استوائيّة على

---

(١) « sierra » كلمة اسبانيــة معناها سلسلة جبال. والبورتغاليون يقولون «serra» (المترجم).

مساحات لا حدود لها، فلا تقوى جهود الانسان المستضعف ازاءها على التغلّب ولو على ضعفه تجاهها. وقد ساد الاعتقاد، زمناً طويلاً، انّ داخليّة هذه القارّة غير مأهولة. وفي هذا المعنى قال هيرودوت: «لا يستطيع احد أن يقول شيئاً عمّا وراء بلاد القفار المُملّة، لأنّ القارّة غير مأهولة بسبب شدّة الحرارة التي لا تُطاق».

وقد بقي تاريخ داخليّة القارة غير معروف إلاّ بما تتناقله حكايات سكان البلاد الأصلاء، الذين كانوا يقطنون مناطق العمالقة والاقزام، والناس القردة، والأغوال التي يأكل بعضُها بعضاً، والنساء الطيور. وبقيت تُقرأ زمناً طويلاً، على بطاقات افريقيا، اسماء الشعوب التالية: الذين «لا ألسنة لهم» واللذين «لا أنوف لهم»، واصحاب «الاصابع المعقوفة»، والعمالقة الذين ينازعون طيور البجع طعامها، فأفريقيا أمّ المُسوخ.

وهكذا وُجدت افريقيا منقطعة الصّلات الوثيقة بالقارّات الأخرى: بسبب الحاجز الشاطئيّ الجبليّ والرملي، وبسبب أنهارها غير الصالحة للملاحة، وكذلك بسبب مناخها وحيواناتها المخيفة، وحشراتها التي هي أخطر من حيواناتها؛ فكانت تبدو محكومةً عليها بالبقاء منطوية على ذاتها.

والمعلومات الأولى عن الشواطىء الافريقيّة تعود بزمانها إلى القرن الخامس عشر، إذ كان البورتغاليون يفتشون عن طريق إلى الهند فاقتادهم التفتيش إلى تحديد شواطىء القارّة التي كانوا يجهلون حدود امتدادها نحو الجنوب، فبلغوا في دورتهم التفتيشيّة رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٨ ؛ ولكنّ الحواجز الطبيعيّة أبقت داخل القارّة مجهولاً مدّة اربعة اجيال أخرى. وقد جاءت الجهود الاستكشافيّة، التي بذلها مونغو بارك ورينه كاييه ومَن خلفهما في هذا المضمار، فوق طاقة البشر. وهذه المصاعب الاستكشافيّة كان في استطاعتنا ان نتبيّن امرها لو تخيّلنا انّ المسافرين الاوروبيين نزلوا على الشواطىء الافريقيّة من جهة الغرب، او انهم ارادوا ان يجتازوا الصحراء، في مغامرة مستحيلة لمسافر دونَ رفيق ؛ والى مصاعب الارض الوعثاء والمناخ القاسي كانت تُضاف عداوة المسلمين المستوطنين افريقيا الشماليّة، الذين كانوا مصمّمين على سدّ منافذ السودان في وجوه المشركين. وفي أوائل القرن التاسع عشر ارتاد المغامرون، مجاري الأنهار الكبيرة وبلغوا منابعها، ثم راحت، بعد ذلك، تتوالى، بسرعة، الاعمال الاستكشافيّة، على الارض الافريقيّة الداخليّة، يعقبها الاحتلال فالتقسيم.

سماء سمراء تُثقل على سهوب لا تنتهي، تربة حمراء جدباء يُغطيها عشب محروق، ومُلتفّات من الاشجار الشائكة

تخيّم عليها سحابات غليظة من اغصان عمالقة الاشجار الافريقيّة المعروفة « بالبأوباب » ، — Baobab — ، وهنا وهناك توزّعت : قرى بائسة سقوفها من القش، وبعض السكّان الاصليين عُراة او كاسين اطماراً ، ونساء ذوات بطون مسطّحة يطحنّ الحبوب بالجواريش، ودجاج وعنزات شاحبة جوعاً، وكلاب وحشيّة . هكذا كانت تبدو افريقيا من السنغال إلى الحبشة . واذا مضيت نحو الجنوب ، بدت لك اشجار هائلة الضخامة تجمع ما بينها جذوع متسلّقة متشابكة فوق اراضٍ موحلة، وسقفٌ من اوراق كثيفة لا يتسرّب منها النور ، وجوّ خانق ؛ وهذا المضيّ يأخذ بك ايّاماً وايّاماً من السير ، إلى أن تصل إلى ضفّة نهر واسع ، لا تبدو لك ضفّته الثانية . وهذه شواهد اثريّة من قبل ان يخلق علم علم الآثار : جماعات من وحيد القرن تطفو حيناً على صفحة النهر ، وحيناً آخر تأتي جماعات من الفيلة لتشرب، بينما تنام بعض التماسيح العريضة الشدقين على كثبان الرمال . واذا شئت وصفاً موجزاً لافريقيا تلك الايّام نقول : ارض القفار ، والعشب الكثيف ، والحمّيات، تلك افريقيا التي كانت تسكنها شعوب وُصِفَت بأنها غارقة في التوحّش الذي لا يتغيّر ولا يتبدّل ، فهي اذن بهائم بشريّة .

ومع هذا ، فانّ العلاقات في ما بين الملاحين الاوروبيين ،

في أواخر القرون الوسطى ، كانت تتحدّث بصورة جديّة عن الممالك المنظمة . ولكن ، بعد اربعة أجيال ، لم يجد المتحدّرون من أولئك الملاحين الاوائل ، على أرض تلك الممالك ، غير الخرائب والرعب . ذلك لانّ الحروب الداخليّة الماحقة التي تتالت تركت افريقيا ظلاًّ لذاتها . فكيف نفسّر ذلسك الانحطاط ؟

لم تكد افريقيا تُعرف ، حتى جذب اليها سوء حظّها تجاراً لا همّ لهم إلاّ ثرواتها الطبيعيّة : من العرب ثم من الاوربيين وكلّهم لا يعنيهم من المجيء إلى هذه القارّة غير الفوائد التي يمكن أن يجنوها منها . وهذه الفوائد تمثّلت باكراً جداً في أنّ آسيا ، ومن بعدها أميركا كانت في حاجة إلى عبيد ، وافريقيا – ارض البربريّة ، وضفّة العبيد – زنجبار أو بلاد العبيد – كانت لهم مصدراً من الرقيق . فكان اولئك التجّار يغتصبون سكان القرى ، ويشترون ألوف المساجين . وهكذا أثاروا عند السكان الأصلاء غزوات غايتها الوحيدة أسر المساجين . وباستمرار هذه التجارة ، التي تستهلك البشر ، انتهت تلك الممالك ، التي اشار إلى تنظيمها المكتشفون ، إلى الخراب على ايدي التجار العرب ثم النخّاسين الاوروبيين . حتى انّ أواخر الوافدين ، من اولئك المتاجرين بالانسان ، لم يجدوا غير المغلوبين على امرهم والمنهوبين المرعوبين يطلبون

الخلاص في الهرب . ومن سوء الحال هذه نشأت عبادة « الفيتيش[1] » فكان الزنجي البربري يعبد غلاظ القلوب من مستعبديه ؛ وهذه الحالة المنتهكة كرامة الانسان بقيت حتّى اوائل هذا القرن؛ اذ اختفت اعمال هذا الفن الماضي ، ولم يبق منه ، في البلاد السوداء، غير تقاليد شفويّة، يُعبّر عنها غالباً باساطير يجهلها الاوروبيّون .

ومنذ بضع سنوات أخذ حبّ الفضول يخطط للكشف عن حقيقة تلك الاساطير التي تروي تاريخ تلك الامبراطوريات القويّة . وهكذا جُمعت ملاحم كاملة من افواه منشدي الملاحم الافريقيّة والمتغنّين بالتقاليد التاريخيّة التي تعيش فيهم . وقد كشف ما قبل التاريخ عن مناجم تشهد بوجود عريق جداً للانسان في هذه المناطق . واخيراً جاءَ علم الآثار الافريقي يرفع عاليا راية التنقيب عن عراقة الانسان الافريقي . وبفضل جهود المنقّبين المتواصلة سنعرف، يوماً ما، مكان الحقيقة في ما بين عزلة افريقيا كما صوّرها الهواة وبين حقيقتها التاريخيّة .

---

(١) الـ fétichisme نوع من عبادة البشر احدثها البورتغاليون تمكيناً لسيطرتهم على نفوس الافريقيين الزنوج (المترجم) .

١ ـ افريقيا فيما قبل التاريخ

ان التنقيبات المتناولة افريقيا ما قبل التاريخ؛ من ادناها إلى أقصاها، مكّنت من العثور على سلسلة، متتابعة الحلقات من التقنيّات المحدودة، أكّد وجودها اختصاصيّون اوروبيون. والحفريّات التي تمّت حتى الآن، ولا سيّما سطحيّاً، كشفت عن مناجم عظيمة الاتساع . ومنذ حوالي ربع قرن تجري تنقيبات عميقة في مختلف المناطق، وهي النوع المعوّل عليه، وحده، في درس القشرة الارضيّة بما يمكن ان يوفّره من المقارنات العلميّة بين العناصر الضروريّة التي يتناولها مثل هذا البحث . فاتّضح لنا أن افريقيا القديمة تغطيها عن عيوننا وأفهامنا ثلاثة أغشية : الرمل، والهوموس، واللاتيريت . ولم يُعثر إلاّ على عدد قليل من المغاور .

وقد أعطت افريقيا الجنوبيّة، وافريقيا الشرقيّة، ومصر، وافريقيا الشماليّة، والصحراء الكبرى بعض الوثائق؛ أمّا الكالاهاري، والغابة الاستوائيّة، في معظمها، فلم تعطيا شيئاً يُستدلّ بـه .

ان العصور الـ : paléolithique[1] و mésolithique[2] و néolithique[3]، اذا اعتُمدت في افريقيا وفقاً لما يفهم بها في اوروبا الغربيّة، فان اعتيادها يحدث التباساً في ما بينها وتشويشاً في ما تعنيه؛ فهي متتالية في اغراقها في القدم. واستعمال العظم المصقول بقي هنا امراً استثنائيّاً، فافريقيّو ما قبل التاريخ عُرفوا غالباً باستعمال الحجر البركاني مادّة لأدواتهم؛ اكثرها من الحجر الرمليّ المكثّف واقلّها من الصوّان. غير ان افريقيا الشمالية اكثرت من استعمال الصّوان. والاختصاصيّون الذين توصّلوا إلى هذه الحقائق في افريقيا هم الذين كشفوا عن مثلها في اوروبا، دون أن يستلزم هذا الكشف التوازنَ التسلسلي في مراحل الزمن.

واول شاهد في تشكيل الحجر، اي في اعطائه شكلاً يلائم الحاجة اليه، ظهر في زمن مبكر في كاغوريا التي يرويها المطر؛ وتشكيل الحجر يشهد لوجود الانسان. أمّا في مرحلة الجفاف التي تلت فالكافوين، المتميّزة بوجود الحجر المصقول نوعاً

---

(١) Paléolithique كلمة تعني العصر الاول قبل التاريخ، عصر الحجر المفصل (المترجم).

(٢) Mésolithique العصر التالي، عصر التجمع على ضفاف الانهار (١٠٠٠٠ – ٨٥٠٠) إلى ٥٠٠٠ قبل الميلاد (المترجم).

(٣) العصر الأقرب إلى الميلاد، عصر بدء الزراعة (٥٠٠٠ – ٢٥٠٠) قبل الميلاد. (المترجم).

ما، تمتد من الصحراء الكبرى إلى الجزائر فالى المغرب ؛ والحجارة المصقولة شاركتها أشكال فؤوس جاءت بعدها . وهذه المرحلة من الزمان، على الارجح، هي التي كان يعيش فيها نوع من البشر[1] ما استطاعوا ان يندمجوا بناس العصر الجيولوجي الرابع[2]، لأنهم كانوا ضعاف الطاقة الدماغيّة وذوي فم مستطيل، ولم يُعثر على أي اثر للنار او للتصنيع مجموع إلى عظامهم . وفي الزمن الذي كان يعيش فيه « الاوسترالوبيتيسيدي » في حوض فغال، من الساحل الجنوبي، لم يكن انسان الاصول الافريقيّة، موجد، Pebble industry[3]، قادراً على أن يبقى محتجباً عن الظهور إلى جوارهم، على أرض افريقيا . ولكن ليس لدينا من بقايا هذا الانسان اقلّ اثر عظمي .

وفي مجرى المرحلة الثانية من الزمن بدت افريقيا وكأنها قارّة الفؤوس الحجريّة المميّزة . وبقايا الانسان فيها هي من النوعيّة المنتسبة إلى النموذج النيندرتالي، مع شيء من المشاركة

---

(١) Australopithécidés هؤلاء ينتسبون إلى أواخر العصر الجيولوجي الثالث .

(٢) هؤلاء يعرفون بـ Homoniens .

(٣) كلمتان انكليزيتان تعنيان : حصاة وتصنيع . فالمقصود اذن : تصنيع الحجر .

١ التي تذكّر بملامح بقايا ناس اواخر العصر الجيولوجي الرابع في جاوه او الصين . وعلى الرغم من التحفّظ في نسبة هذا الانسان إلى العصر الأول ممّا قبل التاريخ، فالبقايا التي وُجدت في غنام وفي كانجيرا، على ضفاف بحيرة فيكتوريا، تُطرح المسألة، التي لم تُحلّ، عن ظهور فرع من الانسان الباكورة، في افريقيا، الذي يتميّز بسماكة العظام، وهو الفرع المعروف بِ هومو سابيان Homo sapiens .

والاراضي الكمبليّة التي يرويها المطر تتصل بمنطقة نهر الـ «Levalloiso-Mousterien» . ولكن التقنيّات الجديدة أضيفت إلى التقنيات القديمــة، اي السابقة، دون أن تلغيها : فمياه نهر الـ «Aterien» أتيريان تختلط بمياه « الليفاللوازو ـ موستيريان» مع رافده، وكثيراً ما تختلط ايضاً تقنيّات قطع الصوّان المصنّع في ما قبل التاريخ . وهكذا لُوحظت، منذ أقدم العصور، صفة الاختلاط القائمة بين الحضارات الافريقية حيث تراكمت عناصر كان تواؤم وجودها امراً لا يخطر على بال . ومن هذا الاستمرار في وجود الفؤوس الحجريّة الكبيرة سيقاربون ما بين الواقع وبين المدّة الاستثنائيّة التي استمرّ خلالها وجود الفرع البشري النياندرتالي، في افريقيا، مثلا : انسان الرباط ذا الصفات المشتركة ما بين العصرين الجيولوجيين :

الثالث والرابع ، وانسان بروكن هيل ، في روديسيا الشماليّة ، فوجودهما محقّق من المغرب إلى رأس الرجاء الصالح .

انها لم تكن ، في ما قبـــل التاريخ ، مدنيّة تضاهي الـ « Solutréen » [1] الاوروبيّة ، وعلى الرغم من تتابع التقنيات في سبيلها ، فليس من شيء يستطيع ان يعيد إلى الاذهان ظلاً من ظلال مدنيّة الـ « Magdalénien » [2] .

ووجود ناس الأومو ـــ سابيان ثابت في افريقيا الشرقية وفي افريقيا الشماليّة ، وفي طبقات من الاراضي الكمبليّة العليا . وهؤلاء كانوا معاصرين الناس المتأخري الزمن من النيندرتاليان وهؤلاء الرجال ينتسبون بالقرابة الشكليّة إلى نوعيّة الغرومانيون من العصر الاول قبل التاريخ ، في أوروبا ؛ فقد وُجدوا ، مثل هؤلاء مدفونين بشكل الانسان الراكع ، يغطيهم غشاء من الجـــصّ .

وقد عرفت افريقيا الشماليّة ، في الغالب ، الانسان المتميّز باحترافه الزراعة وبممارسته تدجين الحيوان ، والمعروف بـ « Néolitique » وهو الانسان الذي عاش بين (٥٠٠٠ ـــ ٢٥٠٠) ق. م. وهذا لا يعني ان سكان باقي افريقيا

---

(١) عصر الذروة في استعمال الحجر المصقول .

(٢) عصر إجادة تصنيع العظم واستعماله بدلا من الحجر .

يجهلون هذه الصناعات ؛ ولكن، سواء أكان ذلك في القفار أو المناطق الاستوائيّة، فان الفلاحين الاوائل اضطروا ان يخضعوا للشروط الخاصة التي كانت تفرضها عليهم عوامل الوسط الذي يعيشون فيه.

أما ظهور السلالات السوداء، فانه، في ما نعلمه اليوم، كان مقترناً بالأوساط المعروفة بـ « mésolithiques »، يعني بين (١٠٠٠٠ — ٨٥٠٠) إلى ٥٠٠٠ سنة ق. م. وهو عصر التجمّع على ضفاف الأنهار، في شمال خطّ الاستواء: المغرب والصحراء، وكينيا. وقد نمت هذه الشعوب بصورة ملموسة وبشكل خاصّ، في زمن «مصر قبل السلالات» والهيكل العظمي (٥٠٠٠ — ٢٥٠٠) ق. م. الذي وُجد على مقربة من بريد الأسيلار، على مسافة ٤٠٠ كلم إلى الشمال من تومبوكتو، في منطقة قفراء، اليوم، بالاضافة إلى اصداف الرخويّات، وإلى بقايا الأسماك الكبيرة، والتماسيح، والثدويّات، كلّ هذه تقدّم بعض المشاركة في مواصفات سلالة زنوج چريملدي، ومواصفات انسان العصر الاول قبل التاريخ في أوروبا (paléolitique)[1]. واذا نظرنا إلى السلالات الحالية التي تقطن افريقيا، في جنوب الصحراء،

---

(١) عصر الحجر المفصّل الغارق في القدم.

استطعنا القول : انّ الكونغوليين العائشين في الغابة الاستوائية أقرب شبهاً إلى نموذج المتحجّرات في الاسيلار من الغوينيين او النيليين .

وفي الوقت نفسه، كانت تقطن جنوب القارّة سلالات غير زنجيّة، مثل سلالة الفلوريسباد التي صارت إلى الانقراض، ومثل سلالة البوسكوب، اجداد بوشيمان العصر الحالي، الذين انشأوا، على الاقل قسماً، من الصور المشهورة القائمة في صخور أفريقيا الجنوبيّة .

فالمصوّرات والمنحوتات على الصخور، والازدهار الفنّي العظيم، الذي يغطي كل افريقيا ، يمكن ان يكون، في مجموعه، احدث منه في اوروبا . ففي المغرب كما هي الحال في الصحراء يبدو أنّ المواقع المائيّة كانت تتحكّم في توزيع المصوّرات القائمة في الصخور، طيلة المرحلة الزمنيّة الأخيرة، المعروفة بالرطبة، وهي مصوّرات لا يعود اقدمها إلى أبعد من العصر النيوليتيكي (٥٠٠٠ ــ ٢٥٠٠) ق. م. ؛ واحدثها جاءت لاحقةً دخول الحصان المدجّن إلى الصحراء (١٥٠٠ ق. م.) ، ودخول الجمل المدجّن (القرن الاول للميلاد) وحتى دخول صناعة الكتابة .

ولكي تُعيّن المسافات المرحليّة المتتابعة في انتشار المنحوتات

الصحراويـّة ، قُدّمت اقتراحات متعدّدة لتصنيفها في تسلسلها . وهي قائمة على اشكالها الانشائيـّة وتقنياتها ، او على انتشار الحيوانات الممثّلة في آثارها . فنرى ان كيليان وجوليود ومونود تتميـّز بعصر الجاموس القديم ، وعصر الفيل الافريقي ، والزرافة ، والغنم ، والبقر ، والحمير ؛ عصر الحصان المدجّن ؛ واخـيراً عصر الجمل المدجّن وحده . ولقد اتاح اكتشاف العجلات المحفورة ، في فيزان وفي الصحراء الغربيـّة ، أن نعيـّن أنّ ظهور الناس ، الآتين من شواطىء المتوسط ، كان في الالف الأوّل ق. م. ؛ الآثار المحفورة تقيم الدليل على طريقين : احداهما تنتهي في الجهة الغربيـّة من منعطف نهر النيجر والأخرى في الجهة الشرقية منه .

وتبدو أوجه الشبه في الاساليب ، والتقنيـّات ، والعوامل قائمة بين فنّ الآثار الصخريـّة في المغرب الصحراوي والفن الليبي المصري ، لتؤكد تأكيداً ثابتاً وجود ثقافة فنيـّة مشتركة في كل مناطق افريقيا الشمالية ، من البحر الاحمر إلى الأطلسي ، وإلى جنوب الصحراء . وكذلك يبدو صعباً ان نفترض الاتيان بكل شيء من مصر وحدها ، مع العلم ان المدنيـّة الليتيكيـّة كانت ذات غنى فريد في زمانه ، وكانت ظروف الحياة ، على هذه

الأراضي الواسعة سعةً عظيمة، موأتية اكثر منها في أماكن أخرى. أما من حيث الإجمال فلا يمكننا القول إنّ عصر النيوليتيك الصحراوي، في مجمله، جاءَ لاحقاً عصر النيوليتيك[1] المصـري.

ولقد أظهرت التقنيات الاثريّة الحديثة وجود سبعة عشر عهداً من الفنون القديمة يتميّز كلّ منها باسلوب خاصّ، ويعود أقدمها إلى عصر الحجر المفصل – باليولتيك[2] – الأعلى. وتقوم صلة من الشرق تتكوّن بين شمال القارة وجنوبها. المكان المختار للأثريّات الصخريّة.

ومن روديسيا إلى رأس الرجاء يعثر الباحث على المنحوتات هنا وهناك، ولا سيّما في السهول العليا الجافة «الڤيلد»، في دولة اورانج الحرة وفي الترانسڤال. كما انها في الصحراء، توجد غالباً، على صخور في الهواء الطلق؛ واقدمها يعود إلى العصر الحجري الاوسط. وتشغل المصوّرات الملاجىء والمغاور في الجبال التي تؤلّف الخط، الذي يقسم المياه على منحدرين اوقيانوسيين، والممتد من الخلف الصحراوي، فهذا أيضاً اقليم مصوّرات. والحيوانات البادية على صخور افريقيا الجنوبيّة

---

(١) نذكر بأن كلمة نيوليتيك تعني ما بين (٥٠٠٠ – ٢٥٠٠ (ق.م.

(٢) نذكر ايضاً بان هذا العصر كان قبل التاريخ.

هي انواع منها : الفيل، وحصان البحر، ووحيد القرن، والزرافة، والجاموس، والببر، والزحافات . كما ان الباحث يصادف ايضاً رجالاً مقنّعين او مسلّحين وكلّهم، بين عارٍ وكاسٍ، يشتركون في مشاهد صيد ذي حركة مدهشة، او في رقصات غايتها ان تسحر الطريدة التي يقلّدون صوتها .

وقد كثر النقاش في أقدميّة هذا الفن القائم على المصوّرات الصخريّة في افريقيا الجنوبيّة . ومهما يكن عمر هذه المصوّرات، فاننا نجد فيها هذه الميزة الأثريّة، المحافظة، والحافلة بالتقنيّات الملموسة والتي يبدو فيها واضحاً وجه القارة السوداء. وهؤلاء الرجال والتقنيات والمؤسسات، التي وُجدت منزوية مزدرىً بها، تراكم ما تناوله البحث منها، ولكن دون أن تختلط معالمه . ومنها ما تناوله التعديل لكي يصبح معاصراً لنا، ولكنه لم يبلغ حتى الآن مرحلة الانجاز .

٢ — الأصناف البشرية الافريقيّة

أيّاً كان الظرف الزمني الذي ظهر فيه سود افريقيا وتكاثروا، فلم يكن بدّ من التسليم بأنهم خالطوا رجالاً من الصّنف الابيض، اصلهم من افريقيا الشرقيّة او من الشرق الأدنى او من أجداد البرابرة . ويُدعى هؤلاء الرجال حامي — ساميين

(نسبة إلى حام بن نوح) لكي تتميّز نسبتهم عن النسبة إلى سام ؛ على الاقل في ما يتعلق بالألسنة، أي باللسان الذي كانوا ينطقون به ؛ لانهم، من حيث النظر إلى تصنيفهم، متوسطيّون، نسبة البحر المتوسّط . وفي ايامنا الحاضرة نرى ان التجمع الغربي او الشمالي من الحامي – ساميين يشتمل على العرب الذين جاؤوه في غزواتهم التاريخيّة[1]، وعلى سكان ليبيا وتونس والجزائر والمغرب [2]، وعلى شعوب الصحراء الموريتانيين والسودانيين والمور والطواريج ؛ وعلى سكان الصحراء الوسطى والتوبو . ونتيجة هذا التزاوج، على درجات مختلفة بين الساميين والسود، كان الحاميّون الشرقيّون الذين قطنوا مصر (نصارى ومسلمون)، وكان الحاميون في بيدجا، والنّوبة، والحبشة، والصومال، والداناكيل وغيرها ... وبالنسبة إلى اللغات التي تكلموها نستطيع ان نقسم الحامي – ساميين إلى ثلاث فئات : الساميّة، والبربريّة، والكوشيّة (في بلاد الكوش) وهو تعبير استعمل في مصر القديمة للدلالة على كل البلاد الواقعة في ما قبل الشلال الاول .

وقد مارس الحاميون الشرقيون تأثيرهم، بصورة مباشرة

---

(١) اكثر من عرفوا بالعرب في افريقيا الشمالية هم في الحقيقة من البرابرة الذين تكلموا لغة غزاتهم .

(٢) هؤلاء المنتسبون إلى المغرب هم في معظمهم برابرة .

او غير مباشرة عـلى جيرانهم السود في افريقيا الشرقيّة، والوسطى، والجنوبيّة؛ وكذلك البرابرة، من جهتهم، فقد نقلوا كثيراً من ملامح مدنية البحر المتوسط إلى سود السودان الغربي وإلى سكان الغوينه. وفي الحقيقة ان تاريخ افريقيا في جنوب الصحراء هو، في معظمه، تاريخ نفوذ الحاميّة اليها بواسطة مدنيّتها، في مجرى العصور؛ بينما بقيت الساميّة، وهي احدث عهداً، محدودة الامتداد في افريقيا الشمالية.

وفي أيامنا هذه، يبدو الصنف الابيض عنصراً غالباً في افريقيا، من الشواطىء حتّى حدود الصحراء جنوباً. ولذلك فانهم يسمّون هذا القسم من القارة «افريقيا البيضاء» تسمية مضادة للقسم الآخر المعروف بِـ «افريقيا السوداء». ولازدواجيّة الضدّين عمق يبدو: في التعاكس الكائن في معالم الارض بين القشرة المتثنّية في بلاد الاطلسي والقشرة ذات التضاريس في باقي القارة؛ وفي التعاكس القائم في المناخ المتوسّطي الحامل في تقلباته من هجير المناخ الاستوائي، ولفحات المعتدل الحارّ، وخانق رطوبته؛ وايضاً في تعاكس التطوّرات البيولوجيّة في قسمَي افريقيا المذكورين.

فاذا كان التناقض واضحاً، فان الحدُود بين الافريقيتين تغيم وراء غشاوات دقيقة. فقد جرى الكلام على تناقص عدد

الزارعين السود، الذين كانوا كثيري العدد في الصحراء، وذلك بسبب ظهور البيض الرحّل يمتطون جمالهم رواحاً ومجيئاً في مزارع السود. ولكننا لا نعرف اشياء معيّنة واضحة عن قديم وجود العبيد في الصحراء: فالتنقيبات التي جرت في غاراما (Garama) دلّت، اول الامر، على آثار شعب ابيض، انضمّ اليه، في القرن الرابع قبل الميلاد، سودٌ، عُرفوا بـ « autochtories »؛ وهم عبيد نُقلوا من السودان، وعادة نَقل العبيد مستمرّة حتّى ايامنا!! ودخول البيض بالقوة إلى الصحراء هو، في حقيقته، أقدم ممّا ظننـــا، بادىء بدء: فهناك مصوّرات حجريّة تثبت وجودهم إلى جانب خيلهم، ولنا بوضعهم، وهم يصحبون أحصنتهم، جدول معلومات يتسلسل بشكل موجز واضح. وهكذا يبدو توزيع الصور الحجريّة المتمثل فيها الحصان ذا مرحلتين: الأولى مرحلة الحصان المشدود إلى عجلة، والثانية مرحلة الحصان المركوب. وهاتان المرحلتان من تطور وسائل النقل والتنقل ما تزالان متماثلتين جرّاً وركوباً، عند سكان الغرب من المغرب، وعند الطواريج في الوسط، وعند التيبو في الشرق.

وفيما كانت الصحراء، قبل التاريخ، يسكنها السود، اخذ اختلاط التزاوج يقلل من نسبتهم إلى العدد العام من السكان اكثر ممّا قلل منها النزوح والتهجير: عند المغاربة

كما عند انقى التواريخ ما تزال، حتى اليوم، ملامح التحدّر من السود .

ومن جهة ثانية، أخذت عناصر بربريّة او عربيّة تتسرّب إلى اقصى الجنوب . ويمكن ان نتتبّعها على الخط القائم بين الصحراء والسودان، في مناطق نصف قفريّة تتخلّلها سهوب، تعاقبت عليها، في ما مضى، كثير من الامبراطوريات السريعة الزوال : امبراطورية توكولور بين السنغال والنيجر ، وامبراطور سونغهي وبول في منحنى النيجر الكبير ، وكذلك بول وهاووسا في الغرب من التشاد، وهؤلاء قبائل عربيّة ومستعربة من أوادا، ومن دارفور ومن كوردوفان .

وفي الطرفِ الشرقيّ تؤلّف الحبشة كتلة منعزلة بطبيعة ارضها وبسياق تاريخها ؛ ولكنّها مدينةٌ بمسيحيّتها وبمدنيّتها لعالم البحر المتوسّط .

وبين السهل والقفر، بين البيض الرُحّل والسود المقيمين، تقوم حدود معرّجة على مدى خط العرض الخامس عشر، من سان ـ لويس إلى تومبوكتو، ثم إلى شمال بحيرة تشاد . والحدود لا تنعطف حقاً الاّ في الشرق، حيث تدور على جنوب الهضبة الحبشيّة لتنتهي على الاوقيانوس الهندي.

وفي جنوب هذا الخط تعيش شعوب هي في معظمها

ميلانو – افريقيين، وميزتهم البارزة في شكلهم البشري هي لون الجلد، المتغيّر، في حقيقة امره، بين الدكنة اللامعة، عند بعض الافريقيين الجنوبيين، إلى الأسود القاتم في السنغال. ومقاومة الصنف البشري الاسود للحرارة ليست قائمة في اللون بقدر ما هي مستمدّة من الغدد التي تفرز العرق، وهي غدد يبلغ أفرازها عند السود ضعف ما هو عند الاوروبيين. وهناك فارق آخر يتفرّد به السود هو الجهاز الشّعري: الجسد أجرد كله تقريباً، وشعر الرأس قصير مجعّد، واللحية نادرة. ثم ان الانسان الاسود يتميّز بكتفين عريضين، وبوركين ضيقين، يبدو معها الجسم ذا جذع مخروط الشكل؛ وبفخذين ضامرين. والصنف الاسود يتميّز ايضاً بفوارق طبيعيّة أخرى. ولغات الزنوج الافريقيين تشتمل على اللغات السودانيّة، واللغات النيلوتيكيّة، ولغات غابة جنوب افريقيا المعروفة بـ « semi-bantou »، ولغات البانتو التي يتكلمونها من خط الاستواء إلى رأس الرجاء الصالح.

والميلانو – افريقيّون فوق هذي الارض التي هي بلادهم، ينقسمون إلى عدد من الاصناف الثانويّة التي تُطلق عليها تسميات جغرافيّة: من سودانيين، وغوينيين، وكونغوليين، وجنوب – افريقيين، نسبة إلى اسماء الارض التي يعيشون عليها. ومنطقة كلّ من هذه الاصناف الثانويّة تتفق، كلياً

أو جزئياً، ومدنيّة خاصة بها، مدنية تتعيّن ماهيّتها بالجغرافية او بالمناخ المحلّي . وهكذا يقتضي تعرّف احوال هؤلاء الشعوب من خلال مفاهيم الايتنولوجي[1] والانتروبولوجي[2]، التي تعني الترابط بين الانسان وبيئته قبل عهد الانسان بعلم الاجتماع وبناء القوميّات.

واشهر هذه الاصناف الثانوية من الافريقيين هي السودانيّة، او صنف «سود لابروس»، القاطنين اقليم السهوب الكائنة في جنوب الصحراء، والسنغال والكوردوفان . وقد تنامت في هذه المقاطعات كيانات دوليّة قويّة متلائمة ومعطيات البيئة وطوابعها . وسود البلاد المعروفة بالسودان كبيرو الاجسام فارعو القدود، اصحاب جلود شديدة السواد، وفكّين يشكو الفم منهما طولاً ملحوظاً . ونماذج الانسان هذا هم سكّان جوار داكار المعروفين بالأولوف . واذا ما ذهبت شرقاً وجدتَ المالنكه، والمأوسّا ... والسّارا ، على الشاري، وكلهم يتميّزون بقاماتهم الطويلة (١٨٠ سم) ورؤوسهم الاكثر استدارةً من سواهم في مقاطعات أخرى .

---

(١) Ethnologie اي العرقية هي النظر إلى مجموعة من الناس على ارض متقلبة المناخ وإلى تكتلهم من خلال نوع العيش الذي يعيشونه والاعمال التي يمارسونها (المترجم) .

(٢) Anthropologie درس الانسان وهو يواجه الحياة في سلسلة من الحيوانات (المترجم) .

والصنف الثانوي الغويّاني المتميّز بقامة أقصر، وبربعة في الجسم يقطن المستطيل الحرجي الممتدّ من خليج غوينه حتى الكاميرون؛ وفي هذا المستطيل مفقودة تربية الماشية، وتسطو على الانسان فيه ذبابة «التسيه ـ تسيه[1]». أمّا الزراعة فعلى شيء من الكثرة، ولا سيّما زراعة الحبوب التي تحييها كثرة الامطار. واذا كانت دول هذه المقاطعات على شيء من حسن الحال اليوم، غير انها ليست في مثل سعة امبراطوريات السودان القديمة وازدهارها.

والصنف الثانوي الكونغولي تتجاوب حياته ومعطيات الغابة الاستوائيّة الكبرى، هذه الغابة التي تدخل في نطاقها، من الجنوب، جوانب روافد نهر الكونغو. وانسان هذا الصنف، هنا، اضعف منه في غير مكان، أمّا الاكتساء الشّعري فأقوى، وطول الفكّين فملحوظ جدّاً؛ وأمّا الاعضاء الاربعة (اليدان والرجلان) فقصيرة نسبيّاً، ولكنّها مفتولة العضلات. وامّا المجتمع فهو ضائع في تجزيء كثير، ويعتمد في غذائه على الموارد النباتيّة بشكل أساسيّ.

والصنف الثانوي النيليّ يتميّز بقامته المديدة (١٧٨ سم ـ ١٨٢ سم) وجسمه الممشوق، ووجهه المستقيم، وتغلب عليه

(١) نوع من الذباب المؤذي يسبب لسعه مرض النعاس أحيانا (المترجم).

إجمالاً الملامح الاوروبيّة لا الزنجيّة . وهذا الصنف يؤلف مجموعة خالصة من الرعاة الذين يحومون حول المراعي في اقليم الأراضي الرطبة والمروج الممتدّة من الخرطوم شمالاً إلى بحيرة فيكتوريا جنوباً .

واخيراً، الصنف الثانوي، في جنوبي افريقيا، يجمع السود الذين يعيشون في جنوب الكونغو البلجيكي، من الاطلسي إلى الاوقيانوس الهندي ؛ وهؤلاء ذوو جلود دكناء وقدود تتجاوز قليلا المتوسّط ؛ وطول معتدل في الفكّين، مع ملامح دقيقة . وبما أنهم كانوا ضحايا حروب وغزوات، نراهم اليوم يحيون حياة الرعاة، في الغالب، ولا يقدّمون اليد العاملة التي تقتضيها مشاريع الصناعة والتعدين في افريقيا الجنوبيّة . ونجد قسماً من الافريقيين الجنوبيين يقطنون مدغسقر بالاضافة إلى قسم من الميلانيزيين ؛ كما انّ بعض العناصر، من الصنف الاصغر، جاؤوا من الارخبيل الملازي في غزوتين، على الاقل، احداهما تمت في القرن الثالث او الرابع، والاخرى في القرن السادس، فكانوا صنفاً آخر يواطنون السكّان الذين سبقوهم إلى العيش في ذلك الجنوب الافريقي . وهذه الغزوة الاخيرة هي التي انشأت مملكة هوڤا [1] على هضاب مدغسقر العالية .

---

(٢) هوڤا Hova كلمة تعني شعبا دخيلا مخالطاً سواه (المترجم) .

أمّا المنطقة الأكثر تقدّماً نحو الشرق، يعني هضبة الحبشية وشبه جزيرة الصومال، فهي بلاد يسكنها الصنف الاثيوبي ذو الجلد المتراوح بين الدكنة والسواد، والجسم الممشوق، والشعر المتموج، والوجه المستقيم، وهو صنف يمكن ان يكون وليد التزاوج بين مجموعة من السود وغزاة من البيض جاؤوا، في الغالب، من الجزيرة العربيّة، او وليد بقايا أصلاء افريقيين لم تكن لهم فوارق بارزة بمعنىً او بآخر، ولكنّ النموذج الاثيوبي بشكل عام، مختلف جداً عن النموذج المعروف لابن السوداء من اب ابيض او ابن البيضاء من أب أسود. وممثلو الأصالة الحبشيّة يسكنون جبال الابيسيني: غالي وأبيسين أو أهرة وتيغريين. وفي جنوب الحبشة، يقطن الصنف الاثيوبي وادي النيل مع شعوب مختلفة أخرى يُطلق عليها جميعاً اسم: جماعة النوبيين. واذا ما وصلنا إلى الشلال الثاني في مرتفعه، حيث ينتهي فجأة نطاق السلالات السوداء او الدكناء، لندخل حدود الانتروبولوجي التي لم تتغيّر منذ اربعة آلاف سنة. وفي الجنوب، نجد النصف ـ كاميين، الذين كان وجودهم نتيجة لمصاهرة بين السود النيليين والحبشيين، وهم ذوو قدود عالية، وجلود دكناء، وشعر أشعث. واخيراً، نجد، في كلّ السودان

الغربي، والسنغال، والتشاد، جماعات من الرعاة [1] أقرب إلى المميزات الاوروبيّة منهم إلى المميزات الخاصة بالسود؛ نجدهم يعيشون إلى جانب الفلاحين السود. وهؤلاء الرعاة ذوو جلود سمراء، وشَعر مموّج، وانوف معقوفة. وهناك ميلٌ في الاعتقاد الحديث إلى أن هؤلاء البول جاؤوا من الشرق يمثلون خليطاً من الاثيوبيين والسود؛ يتكلمون لغة يمكن ان تصنّف في لغات الجماعات السنغاليّة إلى جانب لغة السيرير او لغة الأوْأولْف.

وكان قدامى اليونان قد اشاروا إلى وجود شعوب ذات قامات قصيرة جدّاً، في افريقيا، واطلقوا عليها اسم بيغمه (Pygmées). وكانوا يزعمون انّ مكانها في مصر العليا. فيتكلم هوميروس في الياذته عن معارك جرت بين البيغمه والغري (Grues). وهذه الحكايات رُويت، فيما بعد، في شكل خرافات، واستمرّت روايتها حتى القرن الاخير، تزعم بلسان قصّاصيها انـــه من شايي إلى الغابون (١٨٦٣)، وانه في افريقيا الوسطى، بعد ذلك بقليل، ظهرت جماعة من ناس ذوي اجسام هزيلة صغيرة. واستطراداً لهذه الحكايات نعرف اليوم حقيقة؛ هي أنه، في الغابة الاستوائية الكبرى،

---

(١) هؤلاء الرعاة يعرفون بـ Peuls في اللغة الفرنسية، نتركها على لفظها، ونقرأ ما هي ميزاتهم (المترجم).

يعيش جمع من البشر يتميّز، عن السود الحقيقيين، بالقدود الصغيرة وببعض الفوارق الأخرى البارزة. وهؤلاء من ندعوهم البيغمه او الزنوج القصار، في افريقيا الوسطى. وميزاتهم نعرفها جيداً. وأدلّها على النموذجيّة القامة، التي لا تتجاوز (١م٥٠) ولكنها ليست الميزة الوحيدة، فهناك ايضاً: الجلد فانه ليس اسود، ولكنّه كميت؛ والشّعر، وان كان قصيراً مجعّداً على الرأس، فانه مسترسل في اللحية، باد على سائر الجسم يغطيه كله، بينما يتميّز السود بأنهم جرد تقريباً. ومن خصائصهم ايضاً: الرأس المستدير، والانف الكثير العرض، والشفة العليا التي ترسم على خطّها الاوسط خطاً محدّباً نموذجيّاً. والتناسب في تركيب الجسم له ميزاته الخاصة البادية: رأس كبير جداً، وفخذان قصيرتان تظهر إلى جانبهما الذراعان طويلتين. والفوارق التي تبدو، مميّزة ما بين الكميتيين والسود، تمتد إلى الفوارق التكوينيّة في اجسامهم: فغدد الكميتين ذات الافراز الدهني تبعث في عرقهم رائحة خاصة بهم، ودقّات نبضهم بطيئة؛ حتى ان صيغة مركّبهم الدمويّ ليست كغيرها في دماء الآخرين. والكميتيّون كلّهم يأوون إلى مساكن متشابهة، في الغابة الاستوائيّة الممتدّة من الاطلسي إلى البحيرات الكبيرة، الواقعة ، نطاق الخمس درجات؛ عن جانبي خط الاستواء، مالاً وجنوباً. ويتوزّع هؤلاء السكان الاستوائيون إلى

جماعات تعيش من الصيد، ومن جمع الثمار التي تقدمها الطبيعة ؛ فهم يجهلون الزراعة، والحياكة، وصنع الفخّار . ولا معرفة لاحد بأصلهم . ولكنّهم، كما يبدو، كانوا اكثر انتشاراً، ان لم يكن عدداً، لانّ السود يذكرونهم في تقاليدهم ويعيّنون لهم مواطن لا وجود لهم فيها اليوم .

واخيراً، يعيش حالياً، في جنوب غرب افريقيا، جماعتان من البشر، هما في طريق الانقراض ونعني بهما البوشيمان والهوتانتوت . ويمكن اعتبارهما صنفاً واحداً. والبوشيمان رجال صغار القدود، في معدّل (١م٥٢) ذوو جلود صفراء تذكر بجلود مغول آسيا ذوي اللون النحاسي ؛ أمّا رؤوسهم فيكسوها شعر كثير التجعد بينما جلودهم جرداء . وما يميّز الهوتانتوت عن البوشيمان هو كونهم اكثر طولاً في القامة (١م٦٠)، وكون لون جلودهم اشد نحاسيّة . ولكنّ هؤلاء وأولئك يتميّزون بحوض الكليتين، فهو في اتساع ملحوظ ولا سيّما في اجسام النساء، ففي اسفل ظهورهن كتلة دهنيّة عُرف بهـا الرجال والنساء، تحت اسم (stéatapyges)، فلازمتهم صفة عُرفوا بها .

ولقد اصبحوا اليوم عدداً قليلا من البشر، المتوغلين في

صحراء كلاهاري ، يعيشون في بؤس وصعوبة رزق ، يتكلمون لغة ذات حركات خاصة بظهر اللسان والشفتين تُدعى (cliks) . والبقية الباقيـــة من هؤلاء البشر الصحراويين تُصادف اليوم في السهب الجنوبي من جنوب غرب افريقيا .

الاصناف البشريّة الافريقيّة
حاليّـــاً

- افريقيا البيضاء
  - الاقليم المعتدل
    - المصريون
    - وسكان افريقيا الصغرى
    - سكان كناري
  - الاقليم الصحراوي
    - المغاربة
    - الطواريج
    - التوبو
- افريقيا السوداء
  - أخلاط افريقية
    - السودانيون
    - الغوينيون
    - الكونغوليون
    - النيليون
    - جنوبيو - افريقيا
  - الحبشيون
    - الغاللا، الاثيوبيون
    - النصف حاميون (اختلاط تزاوج : أسود - أبيض).
    - البول (اختلاط تزاوج : اسود - أبيض) .
  - الكميتيون الكوازان
    - البوشيمان والاوتانتوت

لغات افريقيا حالياً

المجموعة	الفرع	المناطق
اللغات الحامية – السامية	السامية	افريقيا الشمالية، ومصر، والمغرب. واثيوبيا وأريتريا.
	البربرية	افريقيا الشمالية، والصحراء.
	الكوشيتية	مصر العليا (بيدجا)، وأريتريا. واثيوبيا، والصومال، وكينيا.
لغات زنوج افريقيا		السودانية، والنيلوتية، و« النصف – بانتو» في الغابة الغونييه، والبانتو : من خط الاستواء إلى رأس الرجاء الصالح .

لغـــات الكـــــوازان ....

١

المعطيات التاريخية

الفصل الاول

افريقيا وعالم البحر المتوسط

لقد كانت الحضارة الافريقية، التي ظهرت منذ خمسة آلاف سنة قبل التاريخ المسيحي، ثمرة وسط طبيعي افريقي : الواحة . واذا قلنا انها غنيت بمد آسيوي، فلا بد من الاعتراف، مع ذلك، بأن سكان مصر الأصلاء، جدود الفلاحين المصريين المعاصرين، سبق لهم أن أقاموا الدليل على مواهبهم قبل ان يؤثر ذلك المد في مستوى حياتهم .

وليست مصر مدينةً بحضارتها لسعة ارضها، وأبعاد حدودها، ولا لصلتها الطبيعية بالقارة الآسيويّة، وجوارها لبحرين، بقدر ما هي مدينة بتلك الحضارة لوجودها الطبيعي كواحة . وما من شك في أن الصناعة عرفت فيها انتشاراً

وازدهاراً، وكذلك التجارة، على الرغم من انها كانت تجارة قوافل ؛ ولكن الشعب المصري زراعي بطبعه لصيقٌ بأرضه ينعكس تعلّقه بها انعكاساً جليّاً . وهو شعب اعطى في تنظيمه الاجتماعي دوراً واسعاً للمرأة ولم يترك فيه مجالاً لتعدّد الزوجات. وسادتها أو روساء مقاطعاتها، « ملوكها المؤلّهون » كانوا يقومون بمهامّ ولايتهم بجديّة مسؤولة جعلتهم يعتبرون نفوسهم مسؤولين عن خصب البلاد . وتحتفظ ديانتهم بطقوسهم المحليّة القديمة ؛ فهم، وان كانت لهم ميول نحو عبادة اله واحد، اصحاب اهتمام دائم بحياتهم اليوميّة التي تعكس لهمّ، ببساطة، ما وراء الحياة .

لم يكن بين شعوب الارض أكثر منهم حبّاً للحرب : ففي مجرى اربعين قرناً لم يحدث غير تعديلات طفيفة في الاوساط السياسية، وهي تغييرات جاءت نتيجة لحوادث خارجيّة، تكشف لنا روية مراحل تاريخيّة : عهد تينيتي « thinite »، ثم تعاقب الامبراطوريات : القديمة، فالمتوسطة فالحديثة . والمصري بوصفه، رجل الارض، اعطى كل اهتماماته لحاصلاته الزراعية . ولكن المناخ بقي عدوه الثابت يتلافى عداوته بجر المياه، وبناء السدود والاقنية ؛ فكان ان دفعته هذه الاعمال إلى التفاهم والجيران، وهذا التفاهم ولّد واجبات متبادلة، والواجبات المتبادلة هي العامل الاساسي في

اتحاد الشعوب ، الذي كان بدوره الممر المؤدي بالمقاطعات المتفرّقة إلى وحدة اوتوقراطية فرعونية . ومن هذه الاوتوقراطية كان انتشار الاعمال الكبيرة ذات النفع العام، وكانت استطاعة ضبط النفقات في نظام معيّن . ومن هذه كلها برزت اهميّة الموظّف، وتحسين الفنون، حتى النظر في خصائصها .

وقد أوجبت حماية مناطق النيل – الاعلى، او خزّان مياه مصر، ضد ايّة غزوة عدوة ممكنة، ان يبقي امراءُ مصر جارتهم السودان حزاماً واقياً بلادهم . فكانت لهم معها تجارة تناولت، بشكل حيّ، العبيد، والعاج، والذهب، وجلود الفهود، والصمغ، والحيوانات الغريبة، وكانت هذه التجارة عاملا وحّد مصر والسودان النيلي . ومن ذلك الحين، وقوافل التجارة تصل بصورة نظاميّة، الكوردوفان والدارفور بالمناطق المجاورة التشاد .

ولم يترك الاشوريّون الفرس، في مصر، اثراً لمرورهم غير الخرائب . فقمبيز حكم حكماً عنيفاً، بينما الاسكندر المقدوني على العكس، دخل مصر، بعد أن اصبح سيد آسيا الصغرى، فاستُقبل فيها استقبال المحرر : حمل اليها السلام والغنى، وقدّم فيها قرابين للآلهة المحليين، واحترم النظام القائم فيها . فخلفاؤه البطالسة، الذين بقوا في اليونان (اتخذوا الاسكندرية، المستعمرة اليونانية، عاصمة لهم)، واتخذوا لهم لقبا اسم فرعون،

ورمموا الهياكل . وهكذا أمّنوا تعلّق هذا الشعب المتدين المتمسك بتقاليده، بسلالة حكمهم المعروفة باللاجيد، التي بقيت حاكمة مدة ثلاثة قرون . وكان من ثمار هذه المشاركة الطويلة الأمد بين حضارتين رفيعتين حركة فكريّة وعمليّة واسعة وملائمة للفريقين . ودخل الفكر اليوناني في تماسّ بفكر محافظ نقّاد مختلف عنه ؛ فمدرسة الاسكندريّة اتخذت لها مركزاً خاصّاً في تاريخ الافكار الفاعلة . وبفضل هذه المدرسة فجّرت افريقيا، في عالم البحر المتوسط، ينبوعاً من النتاج الغريب، يوقظ الفضول على المعرفة ويفسح في افق الجغرافيا .

ومن خلال مصر نفذت تأثيرات حضارة المتوسّط لتفعل بعيداً بعيداً وزمناً طويلاً، داخل القارة الافريقية : فالمملكة الاثيوبيّة رأت قواها تنمو، في حين تتهاوى قوة جوارها، في السودان الانكلو - مصريّ الحديث . وفي القرن الاول قبل الميلاد حاربت ملكة اثيوبيا (كانداس [1]) الرومان، خلفاء المصريين، وغزت النوبة ؛ ولكنها لم تلبث طويلاً على انتصارها حتى سُحقت ؛ فلم تقم بعدها لامبراطورية الميرويه قائمة . وفي اواخر القرن الثالث تراجعت الحدود الرومانية حتى الشلال الاول . وفي الحقيقة ان القبور التي اكتشفت حديثاً في الجنوب

---

(١) Candace كانداس لقب ملوك عرش اثيوبيا (الحبشة) .

عند حدود السودان الانكلو - مصريّة، هي قبور ملوك بليمي، أسلاف بيدجا الحديثين ؛ وقد بقوا يسيطرون على النوبة حتى منتصف القرن السادس. وبتأثير ورثة الحضارة الميرويتيك، المشبعة من التأثيرات المتوسطيّة، امّحت تقاليد مصر والفراعنة الاخيرة. وقد دلّت الآثار الدفينة، في القبور التي بُعثت آثارها، ان لهم طقوساً في دفن الموتى قريبة الشّبه من الطقوس التي مُورست للملوك غانا في غرب القارّة. وبين مدهشات البرونز التي اكتشفت، منذ زمن قريب، في بلاد يوروبا من نيجيريا، بعض اشكال الزينة لرؤوس الملوك تذكّر بتيجان ملوك نوبيا. وقد وجدت ايضاً قناديل برونزيّة تبدو، وكأنها مستوحاة من قناديل بيزنطيّة، واخيراً هناك تمثال صغير للاله أوزيريس، مصنوع من البرونز، وُجد على مسافة ٣٠٠ كلم إلى جنوب كونغولا، في الجنوب الشرقي من كونغو كنشاسا.

بعد ظهور الفينيقيين في غرب المتوسط، وضفاف صقلية، وسردينيا، وايطاليا، واسبانيا ... إلى حوالي ١٥٠٠ سنة ق.م. وخراب قرطاجة حدث سنة ١٤٦ ق. م. : فالسيطرة الفينيقية استمرّت في افريقيا الشماليّة خمسة عشر قرناً، ولكننا لا نعرف من هذه القرون سوى الاخير منها وهو قرن الانهيار.

وعندما وصل الفينيقيون إلى افريقيا الشمالية، كان سكانها

الاصليون يعرفون، بتأثير من جيرانهم المصريين، زراعة الشعير والقمح، وتربية البقر، والغنم، والخيل؛ ويمارسون أعمالاً زراعيّة. وكان في السهوب رُحّلٌ يقطعون الطرق، كما كان في السهول المرويّة فلاحون زرّاعون؛ أمّا في الجبال فكان رعاة ينتقلون بماشيتهم تبعاً لملاءَمة الطقس والمرعى، يُعرفون بِ (transhumans)[1]. وعلى الإجمال، القتال كان مستمراً في هذا الجزء من القارّة، بسبب العداوات القبليّة الدائمة.

منذ القرن الثالث عشر للميلاد، بدأت مراكب صوريّة مسلّحة تجتاز المضيق، المعروف بأعمدة هرقل، لتؤسس غاديس (حظيرة = Enclos) المدعوّة اليوم قادش، ومنها كانوا ينطلقون إلى شمال الاطلسي سعيا وراء معدن النكل، في كاسيتيريد، او الكاربا، في بلاد البلطيق؛ وهناك، على ساحل المغرب الاطلنتيكي، اسس الفينيقيّون ليكسوس مماثلةً غاديس، بالنسبة إلى جبل طارق، وهي سابقة قرطاجة في القدم. وكانت أوتيك، عند مداخل ميدجيردا، تتحكّم في حوضي المتوسط؛ ولكنّ اوتيك غمرتها الرمال فنابت عنها قرطاجة، قرطاجة التي أُسست في القرن الثامن ق. م.، في منفتَح مقاطعة خصبة، عند ملتقى طرقات كبيرة تجاريّة،

---

(١) تسمية نعني: رعاة يتنقلون فصلياً طلباً للمراعي وملاءمة المناخ (المترجم).

والتي توزّع جهدها لبناء مستعمراتها كما يسافر النحل لبناء قفير جديد، من بلاد السيرت حتى المغرب على الاطلسي .

ولقد نوّه هيرودوتس برحلة امر باجرائها فرعون نيخاو الثاني في القرن السادس، على أن يقوم بها فينيقيون ؛ فتلقى هؤلاء امراً بان ينطلقوا من البحر الاحمر فيدوروا حول ليبيا بحراً، ويجتازوا اعمدة هرقل، ويمضوا في الالتفاف حول القارة . فكان ان اكملوا دورتهم في مدة ثلاث سنوات . وكانت هذه الدورة موضوع مناقشات كثيرة ؛ أفضت إلى أنّ الفينيقيّين استطاعوا القيام بسفر طويل لفّوا فيه الشواطىء الافريقية، ايّام كان الصابئة في عدن يعرفون مهابّ الرياح الموسميّة، وكانوا قد حاذوا الشاطىء الشرقيّ حتى قاربوا ناتال، في الجنوب.

وكان ازدهار قرطاجة وغناها الكبير قد أجبراها على الخروج من سياسة الرصانة والسلام الاعزل . فعمدت إلى خلق جيش قويّ مجنّد من المرتزقة والسكان الاصلاء، عندما وجدت نفسها مهددة في الحوض الغربي من المتوسط ، وهو تهديد اطلّ عليها من خلال المنافسة اليونانيّة . وزادت في حيطتها انها حالفت جيرانها . واضافت إلى اقتصادها، الذي كان، حتى ذلك الحين، اقتصاداً تجاريّاً صرفاً، اقتصاداً زراعيّاً، وألحقت ببلادها مقاطعات واسعة أعملت في استثمارها الاصلاء من السكّان، وقد أمسوا عبيداً . ولكي تحمي حقولها

من اعتداءات الرحّل عمدت قرطاجة إلى إقامة مواقع محصّنة. ولم تلبث ان امتدّت سلطتها إلى شواطىء اسبانيا الجنوبيّة، فالباليار، فسردينيا، فصقلية. ثم امتلكت مستعمرات على شاطىء الاطلسي، ونزل احد اساطيلها حتى درايا (Draa) في الشمال الغربي، على حدّ قول بعض المؤرخين، في حين يقول آخرون انهم مضوا بعيداً نحو الجنوب، ويعنون بذلك البعيد دورة البحّار العظيم حنّون حول القارّة.

على أنه، وان كان البحر المدى التجاري الدائم للتجارة الفينيقية، فان الفينيقيين كانت لهم مجالات تجاريّة بريّة. فمن زبائنهم الغارامانت، وهؤلاء، ولو صعب تحديدهم، فهم في الغالب اجداد الطواريج. وكان الفزّان، موطن الغارامانت، يبدو دائماً وكأنه دولة قائمة بذاتها، عاصمتها دجيرما (Djerma) المحتفظة بهـذا الاسم حتى اليوم. وبفضل خط الواحات، الواصل بين هذه البلاد والشاطىء الجنوبي، وبفضل مواقع كثيرة مائية منتشرة في اتجاه السودان، كان الفزّان منذ عُرفت فيه حركة الحياة العمليّة طريق مواصلات عبر الصحراء: فمنذ خمسة قرون ق. م. عرف هيرودتوس الطريق التي كانت تنتهي إلى الفزّان، بعد مسيرة ثلاثين يوما من الشاطىء. وفي عهد قرطاجة كانت قوافل الغارامانت تحمل إلى مدن الشاطىء ريش النعام وبيضه، والعاج، والعبيد المستوردين من افريقيا

الوسطى، وفُتات الذهب من السودان، وكما يزعمون، النكل من هضبة بأوتشي ، في نيجيريا اليوم . وكانوا يجتازون الصحراء ، التي لم تكن قـد جفـّت كلياً ، على ظهور البقر، والخيل ، والحمير ، لأنّ الجمل لم يكن قـد أصبح في خدمة الانسان . وبعد اجتياز الصحراء نستطيع ان نتخيـّل اولئك التجـّار القدامى، كأخلافهم في القرون الوسطى، يتمركزون في مستعمرات موقّتة في الاوساط الاساسيـّة، القائمة على جوانب الصحراء، لكي يتوزّعوا منها على المقاطعات المجاورة، يحملون بضائعهم من الملح، والنسيج، والنحاس، والزجاج بدلا من الذهب الذي يودّون الحصول عليه، فهو حلمهم الذهبي .

وهذه المبادلات التي استمرّت قروناً كثيرة تمكّن من الاعتقاد بان الفنيقيين أدخلوا كثيراً من ملامح مدنيـّتهم إلى بلاد السود، كما سبق ان فعل المصريـّون قبلهم . والواقع انه ما من شكّ في الآثار، الممتدّة من المتوسّط إلى السودان الوسطى والغربيـّة، كلها دخيلة يعود تاريخها إلى القرون القديمة . وابرز هذه الآثار اثنان : احدهما يمرّ بليبيا والبوركو ويصل إلى التشباد متصلا بخطّ فرعي متعرّج ينتهي إلى نهر النيجر ؛ والآخر يبتدىء في مصر العليا ماراً بكوردوفون، وعويداي، وباغـويرمي . وهكذا كانت دائماً البلاد المجاورة بحيرة تشاد

في تماس دائم مع مدنيّة البحر المتوسط ، المتوزعة آثارها حتى أعماق خليج الغوينه .

وفي أوائل العصر الجيولوجي الرابع اختفى الحصان من افريقيا الشماليّة مهاجراً إلى آسيا الوسطى على أثر تبدّل في المناخ . وعاد إلى افريقيا عن طريق مصر، في زمن غزوة الهكسوس، كما يفترض ماسبيرو[1] ؛ لأن الحصان حيوان جرّ وحرب، أي بلجر العجلات وركوب المخاطر للقتال . وفي افريقيا الشمالية يشيرون إلى الحصان بمصوّرات تمثّله مشدوداً إلى عجلات الحرب . من هذه المصوّرات الصخرية ما توزّع على طول الطريق، المرجّح انها كانت تصل المغرب بجنوب الصحراء في عصر يوازن، في تاريخه، القرون المسيحيّة الأولى . ويبدو ان نوعاً آخر من الخيل، جيء به من مصر العليا، أضيف إلى النوع الأول في ما بعد، وهو المعروف بالدونغولا .

وما تزال آثار التأثير المصري ملموسة في افريقيا الشرقية كلها، وفي نيجيريا ايضاً، حيث تجري الاحتفالات، بتنصيب بعض « الآلهة ـ الملوك » او بتجديد شبابهم، بطرق تذكّر

---

(١) عالم فرنسي متخصص بالآثار المصرية (١٨٤٦ - ١٩١٦)، مكتشف السفنكس الكبير في الجيزة او ما يعرف به (أبي الهول) منقوش في الصخر، طوله ١٧ م وعلوه ٣٩ . جسم أسد ورأس انسان . يمثل الاله الشمس . عند المصريين الاقدمين (المترجم) .

بالطقوس المصريّة في مثل هذه الاحوال . والمراسيم المعمول بها، في مصر وسائر افريقيا، ليست غريبةً عن بقاعٍ كثيرة من العالم ؛ ولكنها، في مصر وفي سائر القارة السوداء، تتميّز بالصلة التي يُفترض وجودها بين صحة الملك وخصب المواسم .

ورغم كل جهد فاننا ما نزال نجهل حدود الزمن التي فيها عرف السود زراعة القطن، وبالتالي صناعة النسيج، قوام العيش في السودان ؛ فاذا قلنا انها صناعة منقولة عن المصريين فيجب أن نذكّر بان هؤلاء ما غزلوا ولا نسجوا غير الكتان . غير أن الزوارق بين القصب وحراب صيادي الاسماك الكبيرة من بودوما على ضفاف بحيرة تشاد تكاد لا تخلو، من شكل منها، واحدة من المصوّرات المصريّة . وهناك شواهد كثيرة ما تزال تنطق بما كان من تأثير شرقي قديم على افريقيا الوسطى، منها : القانون المقدّس، والبزق ذو الساعد الطويل، والناي، والفخّ المصنوع من الخيزران، تسقط فيه قائمة الطريدة، فلا تستطيع الهرب لأن جذعاً من الخشب يثقل سيرها . وعدا هذه الشواهد، هنالك ايضاً مصنوعات من البرونز، وأواني زجاجيّة فنيّة كلها تحيي عهود صنعها بما تمثله . حتى في طقوس العبادة تبدو الفأس المزدوجة الحدّ minoenne، أي التي عرفت بين (٣٠٠٠ – ١٥٨٠) ق. م. واخيراً السيوف ذات القبضات بشكل صليب، التي يستعملها الطواريج، يمكن أن

تكون بيزنطيّة الأصل، كما أنّ دزوع البورنو، والأداماوا، مشتقّة من لأمات الامبراطوريّة الرومانيّة السّفلى .

وهكذا يتّضح اننا لا نُعنى بتأثير واحد يجري فعله مرة واحدة ؛ ولكننا في صدد النظر إلى مدّ لا ينقطع، حيث تتغشّى طوابعه دون ان نستطيع تعيين تاريخ دخول هذا او ذاك العنصر من عناصر المدنيّة الفاعلة .

وكان آخر ما تركته قرطاجة من إرث للقارة السوداء : اسمها . فكان المؤرخون اللاتين، اذا ما اخذوا في الكلام على حروب قرطاجة احتفظوا باسم «أفري» لمدنيّي قرطاجة، ولحوادث حروبهم بصفة پينيـــلك «punique» ، وهي صفة جُعلت مرادفةً للفظة قرطاجيّ ؛ أمّا الاعداء فصفة أحدهم مغربي او بربريّ . وفي عهد الامبراطورية الرومانيّة بقيت كلمة افريقيا، المستعارة من لغة پينيلك، الاسم الرسمي لمقاطعة قرطاجة المميّزة عن نوميديا او موريتانيا . وقد بقي العرب، حتى اليوم، يطلقون اسم افريقيا على البلد الذي يسمّيه الفرنسي تونس . فكيف نفسّر، دون الأخذ بتأثير عميق دائم على البلاد القائمة في جنوب الصحراء، الحظّ الكبير لاسم امتدّ شيئاً فشيئاً على القارّة كلها، إذ كان يتّسع نطاق الارض المسمّاة كلّما اتّسع الاكتشاف ؟

ان المؤلفين الذين تحدّثوا عن التأثيرين : المصري والپينيكي (القرطاجي) في افريقيا الغربيّة، استندوا كثيراً إلى وجود الزمرّد الزجاجي القديم الذي عثروا عليه في الشاطىء العاجي، وغانا، والداهومي، حتى افريقيا الاستوائيّة . وفي الحالة الحاضرة لحدود معلوماتنا لا نتمكّن من الجزم في صحة تقدير مصدر او تعيين تاريخ لهذه الزمرّدات، التي لم يُعثر على واحدة منها في ظروف علميّة حقّاً . وما هو صحيح تمام الصحة علميّاً، ان هذه الزمرّدات متوسطيّة المصدر؛ ولكن يبقى أن نعيّن فيما اذا كانت مصريّة او قرطاجيّة « پينيك » او رومانية، او عربيّة او فينيقيّة ... فالتجار القراطجة ما كانوا يتركون أي دليل يسمح لمنافسيهم الظرفيين ان يهتدوا إلى مراسليهم من السود .

وقد استدل المؤرخون على الحقبة الرومانيّة برحلات تعرّف. فبعد الحروب القرطاجيّة والمرحلة المضطربة من الزمن، التي عقبتها، امتدّت سلطة اغوسطوس قيصر، سيد افريقيا الشماليّة، حتى حدود الصحراء . وقد تمركز الرومان تمركزاً قويّاً في افريقيا الشمالية، التي قسموها إلى ولايات : موريتانيا ونوميدا، وافريقيا، وسيرينايك (برقة)، ومصر، وكلها كانت تحتاج إلى حماية من اعتداءات الجيتول « Gétules »[1]، في

---

(١) اسم أطلق قديماً على سكان افريقيا الغربية (المترجم) .

الغرب، والغارامانت، في الشرق . فالغزوات المفاجئة، التي كان يقوم بها الرحّل، أخذت تشتدّ شيئاً فشيئاً ؛ وكان لدخول الجمل ثانيةً، إلى افريقيا، في أوائل التاريخ الميلادي، اثر بالغ في تلك الغزوات. وعظم شأن البرابرة فيها، لأنهم كانوا خير من يمتطون الجمال، فاذا تحرّكوا لغزو كان تحرّكهم نشيطاً حاداً يملأون به الصحراء المقفرة .

ويبدو أن الرومان لم يحسنوا الافادة من الجمل في الكشف عن الثروات الافريقية . واذا كان نيرون قد أرسل بعض رؤساء شراذم[1] جنود في مهمّة استكشاف منابع النيل، فلم يتصدّ احد، في الغرب الافريقي، لأي عمل كشفي او استطلاعي من قبل الرومان، وانما كانوا يكتفون ببعض الحملات العسكرية، في مثل مواجهات مضادة لحماية المقيمين في حدود الامبراطوريّة . وبعد سويطنيوس بولينيوس واحتلال الفزّان بانتصار س . بالبوس، في نحو سنة ١٩، لم تكن هناك حملات رومانيّة بالمعنى الحقيقي سوى اثنتين، نعرف عنهما اشياء قليلة ؛ قام بالأولى سيبتيموس فلاكوس، في نحو سنة ٧٠، فبلغ بلاد الحبشة في ثلاثة اشهر متوجهاً نحو الغارامانت

---

(١) Centurion اسم رئيس centurie ، أي شرذمة من بعض فرق الجيش الروماني (المترجم) .

في الجنوب ؛ وقام بالثانية جوليوس ماتيرنوس، في نحو سنة ٨٦، فبلغ أجيسيمبا، وربما بورنو من ممتلكات الحبشة، وفي الجانب الافريقي عرف الفاتحون الحيوان الضخم، وحيد القـــرن .

ولم تعط هذه الحملات ايّة نتيجة عملية، لأن الجمهوريّة الرومانيّة لم تُعر الارث القرطاجي التجاريّ ايّ انتباه . ومع هذا فان المناقلات التجارية عبر الصحراء لم تُترك دون حماية، في غياب الحامي الرسمي، فقد كان الرومانيون أنفسهم يطالبون بها مطالبة حادّة . وبحكم المألوف بقيت مدن افريقيا الشمالية تطالب تجار القوافل بحاصلات السودان : من عبيد، وعاج، وريش نعام وبيضه، ووحوش للسيرك، ومن ذهب، وذهب على الأخص . وكانت ليبتي مانيا [1] قد تزعمت التجارة عبر الصحراء مروراً بالفزّان ؛ بينما استمرّت قوافل تجار نوميديا في المجيء إلى مدن ساحل المتوسط، وكلّها تقريباً مستعمرات فينيقيّة، حيث كان لتزاوج القراطجة وسكان البلاد الاصليين ذريّة اصبحت شعباً متميزاً بحضارة رفيعة واخلاق خاصّة (قرطاجيّة) ؛ وقد احتفظ هذا الشعب بتقاليد تلك الحضارة حتى فيما بعد خراب العاصمة . ولقد مهّد السبيل لدخول

---

(١) Leptis Magna مستعمرة قرطاجية ثم رومانية، في افريقيا الشمالية، في مكان طرابلس اليوم (المترجم) .

الاسلام واللغة العربيّة، إلى افريقيا الشمالية، أنّ هذا القسم من القارة كان قد عرف التوحيد في الدين (الاله الواحد)، كما عرف انتشار لغة ساميّة الطابع . وبالاضافة إلى هذا، كان الفينيقيون قد نقلوا اليها ممارسة غرس الاشجار : كالزيتون، والتين، والكرمة، هذه الاشجار التي لم تكن معروفة في بلد يبدو وكأنه غير منفصل عن شواطىء المتوسط الاخرى .

وقد مُورس تأثير ساميّ آخر، قبل الاسلام، في افريقيا : ففي القرون الأولى للمسيحيّة، لجأ برابرة افريقيون شماليون متهوّدون، إلى واحات تُوأط، هرباً من الاضطهادات . ولمّا كان هؤلاء حرفيّين وتجاراً لعبوا دوراً في تجارة الذهب ؛ وبعضهم امتدّ دوره حتّى السودان . وفي سنة ١٤٨٦ صدر مرسوم ملكي في البورتغال يأمر بإبعاد كلّ يهود مملكته، الذين رفضوا ان يتنصّروا، إلى ساحل الغوينه . وهكذا أبعد ألوف من الاسرائيليين، إلى سان تومي في خليج الغوينه، حيث تزاوجوا والسكان الاصليين ؛ فنشأت، في تلك الجزيرة، أخلاط من ذلك التزاوج، كان، على ايديهم، ان تزرع أولى حبّات الكاكاو، وهذه الزراعة هي اليوم أولى ثروات افريقيا الغوينيّة .

وفي القرن الخامس غزا الفاندال [1] افريقيا الرومانيّة غزوة اجتياح، فلم تستطع ان تعيد اليها شيئاً من ازدهارها السيطرة البيزنطيّة التي خلفت الفاندال عليها.

أمّا مصر فقد نجت من الفاندال، وعقبت السلطةُ البيزنطية عليها السلطةَ الرومانية. ولكن البيزنطيين ما استطاعوا ان يحموا مصر من أن ينهبها الموظفون فيها. ومن ان تمزقها الحروب الدينيّة، التي انتهت بالبدعة القبطية. وبقيت مصر ايضاً هدفاً لاعتداءات الرحّل المتنقلين غير بعيد عنها.

وهكذا كان الفتح العربي يدنو منها: فكانت سوريا، وما بين النهرين، وفلسطين في ايدي العرب المسلمين. وكانت مصر، ومن خلفها كلّ افريقيا الشمالية، في حالة من الفوضى الشاملة فلم يكن في استطاعتها جميعاً النجاة من حظ مماثل.

---

(١) Les Vandales الفاندال شعب جرماني خلط بالبرابرة، واشتهر بالاجتياح والتخريب؛ دخل افريقيا الرومانية سنة ٤٢٨ بقيادة (جيزيريك). وفي سنة ٥٣٤ طردهم البيزنطيون منها (المترجم).

الفصل الثاني

الاسلام في افريقيا

غزا الاسلام افريقيا، في القرن السابع، منطلقاً اليها من الجزيرة العربيّة على طريقين : سهول حوض المتوسّط، والساحل الشرقي .

١ ـ افريقيا الشرقية

لقد سار العرب، على هذا السّاحل، مقتفين آثار من تقدّمهم من تجار سبئيين، وفرس، وهندوس، الذين استقروا في هذه المنطقة منذ زمن طويل . ولم تكن سلطة السلاطين العرب نافذة عمليّاً الاّ على بعض التجار المسلمين، ومن اصل آسيوي، المقيمين قريباً منهم، وعلى جماعة سكان الجوار المباشر . أما الأعمال التجاريّة فقد تناولت بشكل اساسي بيع

العبيد، الذين، كان الزعماء السود في الجوف الافريقي، يجمعونهم غزواً وينقلونهم إلى عملائهم من التجار العرب. وتجارة الرقيق هذه كانت ثروةً لسلاطين كيلوه، وسوفالا، وزنجبار (وطن السود الاساسي) ؛ ولكنها في الوقت نفسه كانت بؤس السكان وفقرهم، مدّة قرون متتالية. وكان المستفيدون الآخرون النخّاسين المغرقين الشرق كلّه في هذه التجارة السوداء.

واذا ما نظرت إلى ذلك المثلث الجبلي الكبير، الذي يغشى كلّ الجنوب الشرقي المصري ؛ ثم رحت تنظر إلى اثيوبيا، التي تتألّف من سلسلة هضاب ممزّقة، تنحدر منها مجاري مياه انحداراً صاخباً، إلى اودية ضيقة، تتوزّع القرى على مشارفها، قائمة فوق مناكب صخرية، كأنها حراس لتلك الاوداء. وتفصل بين مصر والحبشة، صحراء النّوبه. هذه الحبشة، او اثيوبيا، افضل ما يستوي فيها من الارض، هو مرافىء على البحر الاحمر : الممر الوحيد، تحتله حركة غالبة عليه، ولكنها حركة لا تخلو من الاخطار، ففيه مزدحم من المهاجرين بدأ سيلهم، منذ زمن بعيد، يتدفق من البلاد العربيّة سعياً وراء المرتزق في هذه المنطقة الخصبة. فكان انّ هذه القبائل العربيّة، التي استمرأت العيش في الحبشة، وانصهرت مع السكان الحبشيين اصلاً، ألّفت من ذلك الخليط البشري

نواة للشعب الحبشي الذي بدت عليه باكراً ملامح حضارة تتسم بطوابع الساميّة . هنا يقف المؤرّخ ليكشف عن ازدواجية التسمية : حبشة واثيوبيا . فيقول :

القبيلة العربيّة المعروفة بِـ « الحبشة » اعطت اسمها لاثيوبيا ولهذا تُعرف هذه البلاد بالحبشة، غالباً، في التعبير العربي. وكذلك فان قبيلة الأغازي تركت اسمها على اللغة الكلاسيكية في اثيوبيا ، وهي باقية إلى اليوم لغة الكنيسة المعروفة بِـ « Ghéze » جيز . وهناك ذكرى اليمن وعلاقاتها باثيوبيا، التي أورثت هذا البلد الافريقي ملحمة تجعل اثيوبيا بلد الملكة بلقيس، قمة عرش سبأ، وفاتنة الملك سليمان ؛ وهي التي ولدت من سليمان ابناً هو الجد الاعلى للسلالة الاثيوبيّة . أمّا العرب فانهم غالباً ما يرادفون بين كلمتي عبد واثيوبي . وهذه الشعوب الصغيرة ، من الحامي ــ ساميين ، تجمعت تدريجياً في مملكة يعود تاريخ نشأتها إلى القرن الأول للميلاد : فمملكة اكسوم كانت ذات علاقات بولاية تيجره . وفي القرن الرابع تنصّر الملك؛ فالنصرانيّة كانت آخذة في الانتشار في تلك البلاد ؛ ولكنّها كانت على مذهب « الطبيعة الواحدة » في المسيح ، ذلك المذهب الذي كان معروفاً في مصر ، تحت اسم « القبطي »، تعروه بعض المعتقدات الموروثة عن الوثنيّة، وبعض العناصر اليهوديّة التي دخلت اثيوبيا مع

المسيحيّة او ربما قبلها . والتأثير اليهودي الذي نال حظّه من التفضيل، في الفترة التي سبقت ظهور الاسلام، ذلك التأثير، الذي كان على اشده في الحجاز واليمن، يفسّر لنا، من جهة أخرى، وجود «الغلاشية»، في بعض المناطق، وهي نواة بدعة اعتنقها بعض المتهوّدين قديماً، والتي ما تزال محتفظة بشكل يغاير السلوك الديني اليهودي الاسرائيلي .

وفي القرن السابع، وجدت القبائل الساميّة نفسها منعزلةً عن البحر بالحركة الاسلاميّة المشتدّة ؛ لذلك حوّلت اندفاعها نحو الجنوب، تشهد بذلك الجزيرة التي دانت بالقرآن. وفي مجرى الحقبة المظلمة التي تلت، فتحت مملكة اكسوم الهضاب العليا في وسط القارّة . وفي القرن الثالث عشر، كانت ولايات : أحمرة ، وغودجام، وكُواه، قد اندمجت بعد تماثل، ما خلا بعض المناطق التي تعزلها وعورة ارضها وصعوبة سلوكها، فهذه المناطق بقي فيها بعض ساكنيها، أباً عن جدّ، محتفظين بلغتهم الحاميّة، وبدينهم الخاصّ .

وفي القرن الرابع عشر، وجّهت شعوب صغيرة صوماليّة، اعتنقت الاسلام، حملات لضرب الحصار على المرتفع الاثيوبي ؛ وربما كانت الغاية منه النهب والتخريب . وجرت هناك حركة أخرى كانت ابلغ اثراً ؛ هي حركة الغالاّ، الذين تجمعهم بالصوماليين مؤالفة المُناخ اكثر من وحدة

الاصل ؛ فقد قاموا بموجات غزو متتابعة على الهضاب التي يشغلون السهول المحيطة بها، قاصدين بها عزل السكان الأُصلاء وإجبارهم على العيش في قطاعات مُغلقة متفرقة. واكثر هؤلاء الغالاّ لم يتركوا وثنيتّهم. مع العلم ان بعضهم اسلموا وتعصّبوا لاسلامهم، وان بعضاً آخرين منهم يحترمون يسوع ومريم ولكن في هالة من آلهتهم.

وكان وفود المسافرين البورتغاليين الاوائل، في أواخر القرن الخامس عشر، تجاريًّا ارادوه آنئذ طمعاً في ان ينتزعوا من تجارة البندقية التجارة مع الشرق، وحبّاً بشهرة «پريت جان[1]» التي ما لبثوا ان جعلوها معادلة لشهرة ملك اثيوبيا المسيحي. ولكن المبشّرين في الارساليّات اليسوعيّة الذين جاؤوا بعدهم اخفقوا في حملتهم التبشيرية فطردوا من اثيوبيا، في القرن السابع عشر.

ومن ذلك الحين قطع الاسلامُ الاثيوبيين عن العالم الخارجي فعاشوا منطوين على انفسهم، ولا همّ لهم إلا دينهم وحضارتهم.

---

(١) Prète Jean الأب يوحنا، وهو كاهن بورتغالي؛ فاكثر الوافدين الاوائل إلى افريقيا كانوا كهنة. هذا ما ارجح (المترجم).

٢ – افريقيا الشمالية

الفتح العربي في ما بين مصر والاطلسي كان غزواً سريعاً قاسيـــاً .

وعند موت محمد النبيّ، كانت ردّةٌ عنيفة لم يستطع الخليفة ابو بكر قمعها إلاّ بصعوبة وصبر . فرأى، آنئذٍ، انه من الحكمة انْ يحوّل حدّة الشجاعة في رعيته على المقاطعات الضعيفة من بلاد الفرس والبيزنطيين . فكان القراصنة وتجّار الرقيق، وكانت غزوات الرحّل تهاجم المقيمين، فبدا الأمر، وكأنّ الاسلام لم يصنع جديداً غير ما كان له على صعيد الايمان .

وفي سنة ٦٤٦ سقطت مصر في أيدي المسلمين، وتلتها طرابلس سنة ٦٦٧ . أمّا بلاد البرابرة فهي اصعب مراساً في الفتح؛ ومع ذلك فمنذ سنة ٧٠٥، قبض المسيطرون الجدد على مقاليد الامور في المراكز الرئيسيّة، فبدت الامبراطورية العربيّة وكأنّها وجدت في الشمال الافريقي منتجعاً من الرزق ومرتكزاً من الأرض .

واذا استثنينا الفاتحين الحقيقيين، فالمسألة، حتى ذلك التاريخ، مسألة مشاهدة الهجوم على الوجود البيزنطي . ولكن، ما ان بدا

العرب يتهيّأون لاستثمار البلاد حتى تحرك البرابرة في أماكن كثيرة ؛ واشهر تلك التحركات كانت، اولا بقيادة الزعيم كوسيلا، وثانياً بقيادة كهينة، ملكة دُجيراوا، في الأوريس الشرقي . وهذا التحرّك الاخير كان هياجاً عاماً لم يجد الفاتحون بدّاً من مجابهته .

وقد حققت نجدات جاءت من الشرق تفوقَ البرابرة المسلمين. وهذا التفوق حمل العرب على فتح اسبانيا وغاليا . ولكن بعد هزيمة بواتيه، ظهر اختلاف تسبّب عن تباين النزعات والمنافع ، فهبّ المغرب للتخلص من سلطة العرب، الذين لحقتهم المشاحنات الدينيّة والبدع إلى اراضي فتوحهم (كالخوارج في المغرب) . وهكذا بدأ انحلال السيطرة العربيّة ، بنهاية القرن الثامن، في الشمال الافريقي .

وبعد مرحلة من الاضطرابات الشديدة تركزت ممالك عربيّة في الريف ... وكان أن تأسست في المغرب دولة الادريسيين، مركزها الرئيسي فاس؛ وكان مؤسسها من سلالة عليّ صهر النبيّ .

وفي القرن العاشر قام بعض غلاة الشيعة بتعليم اسلامي جديد يبشر بمجيء المهدي، واقاموا دولة الفاطميين التي امتدّت مطامعها إلى ادخال كل بلاد البرابرة في حكمها ؛ وجمعت تحت سلطانها مصر، وفلسطين، وسوريا . ولكن اتّساع هذه الامبراطورية أدّى

إلى تفسّخها ؛ فكانت مراكش أولى المنتفضات على السيادة الفاطميّة . حينئذ استعان الادريسيون بخلفاء قرطبة .

وفي أواسط القرن الحادي عشر ، أطلق الخليفة الفاطمي من القاهرة قبيلة بني هلال ، لضرب حاكم القيروان الذي تنكر للسلطة الفاطميّة . وكان الهلاليّون يعيشون في مصر العليا ، عيش الفروسيّة ، على الغنائم والاسلاب . وقد تمكن هؤلاء الغزاة من اجتياح افريقيا الشمالية ، مضيفين بهذا الغزو مثلا جديداً للفوضى تتأكل بلاد البرابرة . ولم يسلم من هذا الاجتياح غير مراكش التي بقيت ملجأ الاستقلال البربري ، سالمة من الخراب الشامل . وقد تقاسمت اسبانيا ومصر الامبراطورية الادريسيّة . ولكن ما هو حقّ ايضاً انّ مراكش ، بقيت خلال هذه الاحداث الفاعلة ، معقل البرابرة ؛ فطلعت على الأجيال حصناً بقي الاسلام فيه يستكمل وجوده في تاريخ افريقيا .

وقد حمل البرابرة الرحّل ، جمّالو الصحراء ، رسالة الاسلام باكراً حتى السنغال والمدن القائمة على جوانب الفلاة . وممّا يذكر انه منذ سنة ٧٣٤ ، أي بعد معركة بواتيه بسنتين ، دارت على ألسنة رواة الاخبار العرب حكاية حملة وُجّهت نحو تلك الاقطار التي انسحبوا منها ، غايتها المقايضة بين نسيج الشمال وملحه وعبيد السودان ، وصمغه ، وخاصة ذهبه . وغانا ، واللاغوس ، وغاوُو كانت تستقبل القوافل الآتية من سيدي الميسا ، وتلمسان ،

وتياريت، وبيسكرا، ودجيرما . وعلى كل حال، كان التآلف، والتساهل المتبادَل دائمين بين الاسلام والدين المحلّي في السودان، على حدّ ما رسم البكري[1] .

وفي القرن الحادي عشر نشطت حركة تبشير ديني اقتصرت على جماعات من البرابرة الرحّل، المعروفين جغرافيّاً بالليمتونا، وهم، دينيّاً، من المنحرفين من أهل تاغان والأدرار، وسياسيّاً من الرؤساء التابعين لامبراطورية غانا . وفي سنة ١٠٣٣ قام زعيم الليمتونا بفريضة الحج ؛ وهناك لاحظ انه يجهل الايمان الحقيقي فعاد موطداً العزم على تصحيح ايمان رعيته . وتنفيذاً لهذه المهمّة استدعى واعظاً بربريّاً يكنّى بابن ياسين، وعقد معه العهد على القيام بحملة دينيّة . ولكنهما، بعد حينٍ من نشاط المسعى، يئسا من بلوغ الغاية التي توخّيا الوصول اليها ؛ فاعتزلا في جزيرة من السنغال، اسمها رباط، حيث ابتنيا لهما منسكاً . وقد اصطحبا إلى هذا المعتزل جماعة ممن لبّوا دعوتهم . ومن اسم هذه الجزيرة جاءَت تسمية السلالة، المرابطون . ومنها ايضاً الرباط، اسم لعاصمة المغرب اليوم . وعندما وجد المرابطون انهم كثروا خرجوا من جزيرتهم، وخرج منها معهم جيش الايمان معتمداً الهجوم ؛ فمن جهة، سقطت غانا تحت ضربات المرابطين في نحو

(١) عبد الله البكري، اقدم من بقيت لدينا مؤلفاتهم من جغرافيي الاندلس (توفي في قرطبة ١٠٩٤) مؤلفه المشهور « المسالك والممالك » (المترجم) .

١٠٧٦ . ومن جهة أخرى، استطاع المرابطون أن يكسبوا نصراً مزدوجاً، في كل الصحراء الغربيّة حتى جنوب المغرب، إذ احتلوا هذه البلاد وردّوا إلى ايمانهم الصحيح سكانها . وعندما سقطت سيدي إميسا، سقط ابن ياسين قتيلاً في معركتها ؛ مخلفة ابن تشفين واسس مدينة مراكش وجعل منها عاصمته . وفي سنة ١٠٨٢، اصبح المرابطون يسيطرون على الشمال الغربي الافريقي حتى الجزائر، واصبحت الجوامع تستقبل المصلين في كل البلاد التي احتلوها . وقد اقتادت فكرة الدفاع عن الاسلام ابن تشفين إلى اسبانيا ؛ حيث ترك ذكرى انتصارات حاسمة . وعندما مات كانت امبراطوريته الواسعة تمتد في اسبانيا من شواطئها حتى نهر الايبر، وفي افريقيا تشمل معظم ما يُعرف بالمغرب العربي.

أمّا في الحقبة التالية فقد استلمت المغرب قيادة الاحداث، في كل الشمال الافريقي .

وبقيت مصر، حقاً، مستقلّة عن العرب ؛ ولكنها كانت في أقسى من الحروب، كانت في ثورات داخلية، وبدع وفرق دينية، الخ . فبعد أن تفسخت دولة الفاطميين، جاء صلاح الدين سنة ١٤٧١ فأسس سلالة جديدة، انتهت بعد قرن من الحكم، لتقوم مكانها سلالة السلاطين المماليك . ولمّا كانت مصر، جغرافيا الخط الشرقي المتقدم من افريقيا، كان عليها ان تقاتل

دون مهادنة الاكراد، والمغول، والاتراك . ومن جهة أخرى، قامت سلالات من البرابرة فحكمت، متخذة تونس وتلمسان وسطا لنشاطهم الدولي . ولكن من المغرب استعاد الفتح العربي زخمه، وفي المغرب عادت الحياة فجأة إلى فكرة الحرب المقدّسة . وهكذا أصبحت وراثة الحكم في الشمال الافريقي، ومشاريع الفتح، تجري دائماً باسم الاصلاح الديني، وباسم الرجوع إلى الرأي المستقيم ؛ فكان المرابطون يريدون تنقية ايمان المسلمين وردّ المُشركين إلى الايمان . ولكي يُصلح الموحّدون الاخلاق المسترخية، في احضان المدنية الاندلسيّة، ولكي يصححوا التعليم بوحدانية الله، اسقطوا دولة المرابطين . وعندما أهمل الموحّدون الدور الديني في الدولة انفصل عنهم بنو مرّين، واغتصبوا منهم المغرب . وكما ان المغرب دخلت في سلطة الموحدين باسم التصحيح الديني، فكذلك خرجوا منها، وهي عاصمتهم، باسم تجديد الاسلام؛ بعد أن حكموا بالفتور الديني ؛ فانتقلت إلى ايدي الشرفاء السعديين، ثم إلى أيدي الشرفاء العلويين، من القرابة النبويّة : وهذه الحصانة الدينية التي كان يتمتع بها هؤلاء الرؤساء هي التي حملت الاتراك على أن يستثنوا دولة مراكش من الدخول في حكمهم، الذي رزح تحته المغرب كله دون مراكش.
لكنّ السعديين والعلويين لم يلزموا انفسهم بالدور الذي عهد بهم به، وانما أصبحوا المجلّين في الحرب المقدّسة .

وفي هذه السلطة الدينيّة يكمن كل مبدأ الوحدة السياسيّة تقريباً : فالارتباط الديني ، في افريقيا الشمالية ، يحتل مكان الشرعيّة، ويخلق السلالات للحكم او يبطل حكم الحاكمة فلا تستطيع أيّة مؤسسة أخرى ضمان استمرارها . وقد شبّهوا الامبراطورية المغربية باقطاع ، ولكنّه اقطاع روابطه ضعيفة جدّاً، وكل اسباب قوته وبقائه كائنة في شخص سيّده .

وفي تاريخ المغرب يتتابع انهيار الدولة، ونهوضها، كما يتتالى امتداد ارضها وسيادتها وانكفاء حدودهما . وكم حدث ان اتسعت حدود الامبراطورية المغربية فشملت اسبانيا، وافريقيا الشمالية ، وموريتانيا، حتّى امتدّت إلى نيجيريا . وبينا ترى الذهب والعبيد في تدفق على فاس اذا بهذا السيل ينضب فجأة . وانك لتجد الصورة نفسها عن مثل هذه التغيّرات المفاجئة في الممالك السودانية . ولكن ما يضمن دوام الدولة في المغرب ووحدتها جغرافيّاً وعنصريّاً ليس قائماً في إطارها الجبلي المحيط بها فحسب وانما في شجاعة البرابرة، وصمودهم، وتوقهم الاستقلالي ؛ وهذا كله لم يتوفّر مثله لافريقيا السودانية . فلم يكن من عجب ان تعمّر المغرب طويلا .

ولكن المغرب زاغت عن صوابها عندما أبعدت الاسبان والبورتغاليين ، في أواخر القرن السادس عشر ، فانغرس فيها الحقد الديني ، كما انغرس، من قبل، على سواحل الجزائر وتونس، بيز

اهلها والاتراك. فانقطعت كل المواصلات، واصبح البحر المتوسط جحيماً.

٣ ـ السودان

ماذا كان يمثّل العالم الاسود الغربي، في زمن الاسفار الأولى التي قام بها مغامرون عرب؟ وماذا كانت حضارته؟ عن هذا نستطيع ان نجيب، ولو لإعطاء فكرة، بوصف تركه البكريّ، في القرن الحادي عشر، عن امبراطورية غانا. وغانا اعطت اسمها لدولة اتّسعت لأنها كانت مقرّ السيادة على كل السودان الغربيّ.

ان موقع العاصمة لم يتحدد بالضبط؛ وهكذا يمكن ان يكون قد تبدّل في مجرى العصور. وقد تناولت التنقيبات اربعة او خمسة نقاط متباعدة، في الجهة الغربيّة عند أعلى منعطف النيجر، فيصف البكري حيين متمايزين، بيوتهما مبنيّة من حجر وخشب، احدهما يقطنه مسلمون، وعلماء موسوعيّون، وتجار، والثاني يسكنه الملك وحاشيته بالقرب من غابة مقدّسة حيث كانوا يقيمون الاحتفالات الدينيّة. وكان الإرث الملكي يعود، في الدرجة الاولى، إلى ابن الأخت، وكان يتزين بالعقود والأسورة، كان الذهب يغشّي بسخاء كلّ من يحيط به: على السلاح،

والشّعر، والكلاب. وعند موته كان يدفن في غرفة تحت سطح الارض مع خُدّام كثيرين، ومؤن، وسلاحه، وزينته؛ وتعلو كلّ هذا قبّة تغطيه. ويبدو ان الملك كان مطاعاً مَهيباً؛ لأن الناس كانوا يتجوّلون دون خوف. والمسلمون كانوا يمارسون طقوسهم الدينيّة بحريّة، ويشغلون إلى جانب الملك الوظائف الهامّة، وكان في حيّهم من العاصمة تسعة مساجد.

وتقتصر معلومات البكري على الصحراء وعلى السهل. ولا يورد لنا الاّ القليل جدّاً عن البلاد الكائنة في الجنوب، وان دخول الجمال اليها كان ممنوعاً، ودخول الخيل يمنعه المناخ وحشرة التسيه — تسيه؛ والممنوع بصورة اشد وادقّ دخول الغرباء، يمنعه ملك شديد الخوف من ان تنكشف منابع ثرواته، هذه المنابع التي تتمثل اليوم في المناطق ذات المناجم الذهبيّة في بامبوك وبوري.

وفي القرن الرابع كانت دولة غانا، التي اسسها، على الارجح، رهط من البيض، ثم خلفتهم على عرشها سلالة سوداء، في القرن الثامن. وقد سيطرت هذه الامبراطورية على كل السودان الغربي، في القرن العاشر. وكان سقوطها تحت ضربات المرابطين، بعد خمس عشرة سنة من القتال (١٠٦١ — ١٠٧٦)، وبعد أن عاشت دولة عزيزة غنيّة مئة سنة. ولكن هؤلاء المنتصرين من

المرابطين، في الجنوب، اختفوا عن المسرح الدولي في زمنٍ كان فيه ملوك الشمال في أوج عزّهم.

ولقد كان لتأثير المرابطين والخوف منهم ما حمل بعض الشعوب السوداء، العائشة في تماسّ بهم، على الاسلام: كَتوكولور [١]، وسراكولي، وديبولا، وبعضاً من المانْدِنغ [٢]. والواقع أنّ اسباباً: منها ما هو عائد إلى السياسة، وما هو عائد إلى الاقتناع او ضمان العيش، ساعدت على امتداد هذا الدين الجديد إلى رئاسات كثير من الدول بينما انقسمت شعوبها بين اعتناق الجديد والبقاء على القديم. وكان لانتصارات المرابطين كما كان لسقوطهم مضاعفات أخرى شديدة: فامبراطورية السهل القديمة كانت تجمع ولاياتٍ لم يكن يجمعها جامع دولي بالمعنى الصحيح؛ ولذلك استعادتْ سريعاً استقلالها.

والامبراطورية الثانية السوداء التي وصلت الينا شهرتها هي دولة مالي. وقد بقيت أصولها مكتنفة بالظلمة، فلم تدخل التاريخ إلا في أوائل القرن الثالث عشر مع اشهر رؤسائها سوندياتا. هذا الامير الذي جعلت منه الملحمة بطلاً، تعلق بطولته بالاذهان، كان ذا قوة عظيمة، في نحو ١٢٣٥، مكّنته من تحرير بلاده

---

(١) Toucouleurs شعب فيه من الغوينه ومن السنغال.

(٢) Mandingues خليط من شعوب متجاورة اسس دولة مالي (المترجم).

من سلطة سومانغورو، ملك سوسّو. وفي سنة ١٢٤٠، دمّر سونديانو مملكة غانا، ثم ثبّت على ولايتها نائب الملك المخلوع. ومضى يضاعف فتوحه، فجدّد لنفسه بناء امبراطورية واسعة؛ هذه الامبراطورية التي أفسح بعضُ خلفائه حدودَها نحو الشرق، مخضعين لسلطانهم القسم الاعلى من منعطف النيجر.

وممّن وصفوا هذه الامبراطوريّة وصفاً حيّاً ابن بطوطة، إذ زار بلاد مالي سنة ١٣٥٢، وكانت زيارته تلك بعد وفاة اكبر ملوكها، غونغو موسى. وكان هذا الملك القادر قد أدّى فريضة الحجّ سنة ١٣٢٤، في حاشية كثيرة العدد، فأدهش العرب ببذخه وصدقاته. وقد حمل معه في عودته عدداً كبيراً من مشاهير المسلمين، بينهم السّهليّ، وهو مهندس وشاعر، ينسبون اليه خطأ إدخال نموذج من البناء إلى السودان، في حين انه لم يكن غير مجدّد بناءَه. وكان امبراطور مالي، الذي امتدت حدود بلاده من الصحراء إلى الغابة، يحتفظ دائماً بعلاقات مع ملوك المغرب ومصر. وممّا هو جدير بالذكر انه دعا إلى بلاطه ادباء كثيرين عرباً، كما دعا تجّاراً من المغرب، فأطار هؤلاء شهرة مالي حتّى جاءَت اوروبا وعاشت فيها روايةً في أفضل ممّا كانت حقيقة.

وفي القرن الخامس عشر، دخلت مالي مرحلة انحطاط.

وكانت اسباب هذا الانحطاط ضعف امرائها وتجاوزات حكامها فانتزع الطواريجُ التومبوكتو، سنة ١٤٣٥ ؛ واستطاع السونغاليون[1] ان يتحرّروا، كما انّ الموسيين دفعوا غزواتهم إلى ما خلف النّيجر

كل هذه الامبراطوريات دول بيئيّة مكانية . فهناك مناطق مجاورة الساحل، ولكنها بقيت مجهولة عند العالم المتمدّن . ولم يمنع العرب ايّ مانع من ان ينزلوا من المغرب، الذي كانوا اسياده حتى بلاد السنغال، وإلى ما هو أبعد أيضاً، في زمن كانت فيه زوارقهم الشراعيّة، على الضفة الشرقيّة، تتجاوز سوفالا . وكان يجب أن نفترض انّ القوافل كانت كافية للمواصلات عبر الصحراء . وعلى الخرائط التي وُضعت قبل القرن الرابع عشر، قليلاً ما تتراءى ذكريات العصور القديمة : فموريتانيا، وافريقيا ونوميديا، وغيتولي، وغارامانت، وطرابلس، كلها لا تعني إلاّ، ما كانوا يتخيلون داخل القارة، مسوخاً شبّحها وهم الواهمين ورسمتها اذواق المحدّثين .

وبعد سقوط مالي انتقلت الأوليّة إلى السونغاليين، المستقرّين في الوسط النيجيري، متخذين غاوُو عاصمة لهم . وكانوا يملكون،

---

(١) «Sonrhaïs ou Songhaïs» شعب مالي عاش على ضفتي النيجر فاستوطن «غاوُو» في القرن الثالث عشر، وفي ال(١٥ عشر) استوطن تومبوكتو، واسس دولة بقيت قائمة حتى ١٥٩٢ (المترجم) .

إلى جانب جيشهم البريّ القويّ، اسطولاً بحريّاً صغيراً. ولئن كانت امبراطوريتهم أضيق حدوداً، من جهة الغرب، من حدود مالي، فانها كانت، من جهة الجنوب، تمتد مع تأثير فاعل إلى مقربة من أبومي، ومن جهة الشرق حتى أغاديس. واعظم ملوكها كان أسكيا محمد، بقيت ولايته من (١٤٩٣ — ١٥٢٩) وقد حجّ إلى مكة المكرمة سنة ١٤٩٥، محاطاً بحامية قوية انيقة؛ فأنفق ثلاث مئة الف قطعة ذهبية في بذل الصدقات وبناء المؤسسات التقويّة، في المدينة المنورة. وعند عودته من تلك الحجّة أنعم عليه الخليفة، في مصر، بأن عيّنه ممثّلاً له وقائماً مقامه في كل افريقيا الغربية.

وفي آخر القرن السادس عشر نشب خلاف بين امبراطور غاوُو وسلطان المغرب السعدي حول مناجم الملح في الصحراء. وهذا، على الاقلّ، ما تذرّع به السلطان المغربي الحاسد على ثروات السودان، فأرسل فرقة من المرتدّين الأسبان مجهزين بالبنادق. فكان ان سُحق الملك السوداني ونُهبت بلاده، وتركّزت السلطة المراكشيّة على اواسط النيجر. ولكنها سلطة اسندت امن البلاد إلى مرتزقة من الجند، فاستبدوا باستثمارها وعاثوا فساداً في خيراتها؛ فلم تستطع البقاء إلى ابعد من سنة ١٩٦٠ فدالت.

فانتهز الفرصة جماعة، من شعب الماندنغ المعروفين بالبَمبارا

في منطقة سيغو ، واستقلوا بحكم انفسهم ، فاصبحت لهم ، في القطر السوداني ، أهميّـــة مفاجئة . أمّا من حيث حزم السلطة ومساحة الارض فلم تكن هذه الدولة تشبه الدولة التي سبقتها : فالنفوذ الذي تتمتع به المدنية الاولى، عادة، تقاسمه البمبارا من سيغو والبمبارا من كأرتا، ولكنّ الجانبين لم يتمكنا معاً من الحؤول دون تأسيس مملكة مستقلة قام به الفولبيس [1] ، من ماسينا، وان يُلحق هؤلاء مقاطعة تومبوكتو بمملكتهم . ولكنّ الفولبيس الوثنيين، في فوتا تورو اندحروا امام سود توكولور ، في أواخر القرن الثامن عشر . وهؤلاء في معظمهم مسلمون، استطاعوا أن يؤسّسوا دولة تيواقراطيّة من الحكم الملكي . وقد بقيت هذه الدولة قائمة تاريخ إلحاق بلادها بالمستعمرة الفرنسيّة في السنغال .

وفي وسط اسلامي يدعى فوتاديالون قام نبيّ مسلم [2] ، اسمه الحاج عمر ، في سنة ١٨٥٠ أنشأ جيشاً، وصعد نحو الشمال، وراح سريعاً يفرض سلطته على كل القطر السوداني ؛ وهي سلطة تركّزت على السنغاليين والغينيين . واستمرّ مسلّطاً إلى أن تصدّت له قوة فرنسية فأنهت ولايته .

---

(١) الفولبيس والبيول : والكلمة الثانية مر ذكرها، في ما تقدم، وهما مترادفان يعنيان جماعات من اصلين : بربري واثيوبي، كان لها شأن في التقلبات الدولية، والتاريخية اجمالا، في القارة الافريقية . (المترجم) .

(٢) كان يجب ان يقول المؤلف بأن هذا « الحاج » ادعى النبوءة (المترجم) .

وكان خاتمة الفاتحين السودانيين ساموري توري ؛ اصله من الغوينه العليا، كما كان آخر صيادي العبيد، في هذه المنطقة التاعسة . وقد تألفت جيوشه من متطوعين ومن مجنّدين على الارض السودانيّة ؛ فكانت تبيع أسراها او تقايض عليهم باسلحة او ذخائر في سيراليون وفي ليبيريا . وعندما أجبر ساموري على الخروج من السودان ومن الغوينه العليا، قبل ان اسره الفرنسيّون سنة ١٨٩٨ ، مضى يجتاح كل البلاد حتى الفولتا السوداء ؛ فبقيت ذكرياته سوداء مخيفة في كل مكان مرّت به قدماه او امتدّت اليه سلطته الوحشيّة .

وبما أن المصادر المخطوطة نادرة، والتقاليد المحليّة مختلطة الوجوه، نحن قليلو المعلومات عن تاريخ السودان الأوسط . ولكنّ الامر مختلف بالنسبة إلى شرق النيجر ، فالاسلام في تلك البلاد وطرُق استثمارها جعلتها حديثة المعلومات .

ومستوطن الهوسا، وهم شعب مؤلّف من تجار وفلاحين ماهرين ذوي مودّة، قائم على ممرّات طويلة تمتد بهم حتى افريقيا الشمالية ، في ما بين السونغاي والبورنو . وتطغى على حكاياتهم التقليديّة المحليّة حكاية اسطوريّة هذا موجزها : في أوائل القرن الحادي عشر كانت تحكم المدينة الهامّة، دورا ملكة ورثت بلاداً كانت لسبعة ملوك. وحدث ان اجتاح هذا المُلكَ ، المجتمع لها، مُسخٌ كان يمنع السكان من أن يجمعوا مؤنهم . فجاء

رجل ابيض من الشرق او الغرب، انهم لا يجزمون، ولكنّه ابن ملك بغداد، فقتل المسخ وتزوج الملكة فرزق منها سبعة أبناء. وهؤلاء هم بُناة المدن السبع التي اصبحت دول الهاوسّا السبع. نذكر منها ثلاث مدن، وهي التالية:

قانو التي زارها لاون الافريقي، في القرن السادس عشر، وغوبير المدينة المشهورة بانتاج القطن وصناعة الجلود، وكاتسينا... وكلّ هذه الدول كانت، في القرن الخامس عشر، تابعة دولة كيبّي، القائمة في الجنوب الغربي من سوكوتو، والتي تحدّد سكانها خليطاً من السونغاي والهاووسّا. ولكنّ دولة كيبّي، بعد ما فتحت أغاديس سنة ١٥١٥ متحالفة والسونغاي، رأت ان تنفصل عن هذا الحليف الذي اصبحت قوته خطراً عليها. وفي الوقت نفسه، كانت دويلات الهاووسّا قد اتّحدت لتتحرّر؛ غير أن تحرّرها أدّى إلى التخاصم في ما بينها. وبينا هي كذلك دخلها الاسلام، وراح ينتشر فيها، ولكنه لم يشملها كلها إلا على يدي عثمان دان فوديو، الذي جاءها من فوتا تورو.

وقد تمكّن عثمان من التغلّب على الهاووسّا؛ وهو على شيء من القربى بأمرائهم. واكمل مدّ سيطرته حتى دانت له البلاد من النيجر إلى بورنو.

وفي سنة ١٨١٥ مات عثمان، ولم يكن أخلافه اكفاء لتولي

تلك الامبراطورية الواسعة، التي انهارت سنة ١٩٠٤، عندما احتلّت القوات الانكليزيّة سوكوتو .

إلى الشرق من الهاووسا، يمتد سهب رملي في المنخفض التشادي يسكنه شعب اسود، جاء خليطاً من تزاوج البربر والعرب بالسود . وهذا السهب يشتمل على مقاطعتين جغرافيتين : قانيم في شرق البحيرة، والبورنو في غربها . وبقينا نجهل تقريباً، كل شيء عن هذه البلاد، حتى آخر القرن الحادي عشر، عندما تسنّى لها ملك، اصله من تيبيستي، عمّت سيطرته الكوّار، والتيبيستي، والبورنو . وفي نهاية القرن الثاني عشر، جاء من قضى على السلالة الحاكمة، وهو فاتح مسلم من قانيم، حمل لقب « مايي »، واسس سلالة جديدة . ولكن الامن لم يستتبّ طويلاً، فحصلت ثورة قام بها السّاوو [1] «les Sao» ، وهذه الثورة أعقبت فتناً واضطرابات طال امرها فتعاظم شرها .

وفي سنة ١٣٥٣ زار ابن بطوطة التومبوكتو ثم التّوأت حيث سمع القوم يتحدّثون عن البورنو، وهي على مسيرة اربعين يوماً، وسكانها مسلمون يحكمهم ملك يُدعى إدريس . وقد بلغت هذه الامبراطورية ذروة مجدها في عهد ادريس الثالث، في آخر القرن السادس عشر، وكان الفضل في قدرتها للسلاح الناريّ،

---

(١) إلى هؤلاء ينسبون صناعة فخارية مدهشة اكتشفت حديثا .

الذي كان هذا الامير يتلقاه من طرابلس . وامتدت مساحة البلدان التي حكمتها هذه الدولة فشملت قانو، وزندير، واللاّيير، على قانيم حتى بحيرة فيتري ؛ كما شملت بلاداً يقطنها التّيدا، واخرى في الجنوب على المندرا، والكوتوكو، والموسْغو . وهاكم بعض ما جاء في « طريق الفتح » : « في العالم أربعة سلاطين، ما خلا السلطان الاعلى في القسطنطينية، هم : سلطان بغداد، وسلطان القاهرة، وسلطان البورنو، وسلطان مالي » . ولم يكن خلفاء ادريس الثالث من ذوي الدراية ليحفظوا مملكة واسعة جداً كالتي ورثوا، فتفسخت واصبحت اشلاء دولة . بعضها استقل بحكم ذاتي ، والبعض الآخر انضوى تحت سيادة دولة أخرى .

وفي سنة ١٨٠٨ هاجم البورنو فاتح بلاد الهاوسا، عثمان دان فوديو . فهبّ إلى محاربته قانيمي، احد زعماء القانيم وتصدّى لذلك الهجوم، على رأس جماعة من سود البورنو، ومن العرب الآتين من احدى ولايات اثيوبيا، وارغم الجيش المهاجم على التراجع حتى العاصمة التي بعثت به محارباً . ولكن، على الرغم من هذا التراجع، فقد بقيت السلطة الحقيقيّة في يدي الزعيم المظفّر، الذي أعلن ابنه، من بعده، نفسه سلطانا على البورنو، سنة١٨٤٦ . وهكذا أسس فيها السلالة الثالثة . وتتالت الاحداث فاذا بهاشم، خلف مؤسس السلالة الثالثة، يُهاجم، سنة ١٨٩٣، ويُهزم، ثم يقتله مغامر اسمه رباب . وهذا المغامر لم يلبث ان

داهمته شرذمة فرنسيّة ، في قصيري، عند ملتقى النهرين : الشاري واللوغون، فقتلته . ثم كانت الحماية البريطانية فنصّبت ابن أخي هاشم سلطانا على البورنو

والى جنوب قانيم تمتد مملكة باغويرمي التي تأسست في القرن السادس عشر . وقد اعتنقت الاسلام في القرن السابع عشر، وحدث أنها، في مجرى تاريخها انتقلت من تحت وطأة حكم البورنو، جيرانها الغربيين، إلى مثل ذلك من حكم العواداي ؛ هذا الحكم المعروف بشدة مظالمه وعنف تصرّفه، اللذين وُصف بهما أكثر ملوكه . وهذه البلاد المعروفة بدولة العواداي، وبيرغو ودار صالح تشتمل مجموعة سكانها على بعض قبائل من أصل عربي، تختلف في خلوص عروبتها، وعلى قبائل من الزنوج . وفي الواقع انّ الاسلام قد دخل بلاد العواديي في القرن السابع عشر، والذي حمله اليها امير من سلالة العباسيين كان قد جاء مصر . وماحدث على يد هذا العباسي، الوافد إلى مصر، حدث مثله في شرق العواداي، في دار فور، الساميّة العرق، في القرن السادس عشر، على يد سولون سليمان . وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر، غزت الكوردوفان جيوش مصريّة، كما انّ السودان المصري ألحق بأراضيه ارضَ دارفور، سنة ١٨٧٤.

وفي السبعينات من القرن التاسع عشر كان السودان الشرقي ملحقاً بمصر، ولو اسمياً . وهذا بعض ما قاله مسافر نمسوي،

اسمه شوينفورث، وقد زار تلك المناطق : وجدتها مجتاحة يعبث بأمنها تجار عديدون بضاعتهم العبيد، أقطعوا نفوسهم الارض التي يعيشون عليها . وكانت تحميهم أشباه مخافر مسلحة وتؤمّن لهم، مع سلامتهم، مصادرة المواشي والبشر . ولكن قوّة هؤلاء المدعوّين مقايضين أخذت تقلق الحكومة المصرية ؛ فاستُدعي إلى القاهرة زبير باشا، وهو اغناهم، واحتُجز فيها . فرأى تجار دارفور في هذه المعاملة تمهيداً لإلغاء تلك المقايضة المجازة، فنشبت ثورة، وعلى رأسها ابن زبير ؛ ولكنّ امرها لم يطل : اذ قُتل القائد وتشتت زمره المقاتلة . غير ان هذه الحركة الثوريّة كانت نواة لمغامرتين كبيرتين : مغامرة رباح ومغامرة المهدي

وكان رباح أخا زبير باشا في الحليب وقائمقامه الرئيسي . فلجأ إلى بحر الغزال، حيث أحاطت به جماعة من المجهّزين بأفضل السلاح ؛ وراحت تنطلق به نحو الغرب، إلى أن وصلت واياه إلى جنوب التشاد . وهناك، وبعد اثنتين وعشرين سنة من الخراب في السودان الأوسط، التقته إحدى الفرق الفرنسية فقتلته وشتتت حاميته ؛ وبذلك وضعت حدّاً لذلك الخراب

ومحمد أحمد، المعروف بالمهدي وخليفته كانا سودانيين . أمّا المهدي فكان ينتمي إلى عائلة من النوبة ؛ واعلن نفسه في لقب « مهدي » سنة ١٨٨١، بعد أن تغلّب على حاكم فاقودا في جبال الكوردوفان . وبين ١٨٨١ و١٨٨٤ فتح تباعاً كل

الكوردوفان، والدارفور، وبحر الغزال. وفي كانون الثاني من سنة ١٨٨٥، دخل المهدي امّ درمان دخول الفاتحين، كما دخل ضاحية الخرطوم، ثم الخرطوم نفسه، حيث حكم بالموت على كوردان باشا. وهكذا عمّت سلطته ثمانية أعشار ما كان قد قد عُرف، منذ خمس سنوات، بالسودان المصري. ومات المهدي فجأة، بعد زمن يسير، فخلفه عبد الله. وكان هذا، أصلاً، من دارفور، فاستطاع ان يجمع، بسرعة، جيشاً من مواطنيه. واندفع بهذا الجيش نحو الحبشة؛ فسقطت كوندار بين يديه، سنة ١٨٨٨ فنهبها.

ولكن أمر هذه السلطة، المعروفة بـ «حركة الدراويش» كانت زائلة، فراحت تميل نحو الغياب. ففي سنة ١٨٩٦ استعاد الجنود الانكلو – مصريّة الدونغولا؛ وفي العاشر من تموز سنة ١٨٩٨ دخل القائد مارشان فاقودا؛ كما استردّ القائد كيتشنر امّ درمان، في السنة نفسها. وفي سنة ١٨٩٩، لجأ عبد الله إلى الكوردوفان؛ فلحقت به قوات انكليزيّة، وحاصرته ثم قتلته.

وبالاختصار، يرى المراقب ان الاسلام دخل افريقيا على طريقين، مكّنتاه من التغلغل فيها: طريق الغرب وهي التي تتصل بالنيجر، بعد ان تتجاوز المغرب؛ وطريق الشرق تبدأ بمصر في أعالي النيل او في المنطقة الطرابلسيّة. وهاتان الطريقان

نعرفهما، فعليهما جئنا فنظرنا مصر، وقرطاجة، وبيزنطية ...،
وعليهما عبرت الحضارة المتوسطيّة إلى قلب خليج غوينه.

ويرى المراقب، ايضا، ان الموجتين الاسلاميتين تحتفظ كلّ منهما بطوابعها الخاصّة. فالمجرى الآتي من الغرب، الذي حمله البيول، في القرن التاسع، إلى بلاد الماوسّا، حتى دخلوا به أداماوا «Adamawa ou Adamaoua»[1] وهو ذو منابع بربريّة. هذا الاسلام هو في الاساس اسلام المرابطين. ولكن كثيراً ما طرأ عليه بعض التغيير. فعندما ندرت تأدية فريضة الحج، نظراً للصعوبات والمخاطر، دون الوصول إلى المحارم؛ نشأ نوع من عبادة الاشخاص المقدّسين، بولغ فيه حتى عُبدت الاماكن التي سكنها اولئك المعبودون. فأصبحت آيات التجديد، بعض الاحيان، شيئاً من التعبير السحري، حتى أصبح بعضها يحمل مكتوباً على رقاع، وهو ما يُسمّى اليوم «حرزاً او حجاباً». وقد عظم الإقبال على اقتناء هذا الحرز، الذي يحمي من المخاطر، حتى صار صناعة وتجارة اختص بها بعضهم.

والمجرى الآتي من الشرق كان يبحث عن ان يتصل باليمن مروراً بمصر، ومنطقة طرابلس. والظاهرة النموذجيّة التي يشار اليها، في هذا الصدد، هي الاخوية السنوسية، التي وُلدت من الحركة

---

(١) بلاد ما بين نيجيريا والكاميرون.

الوهّابيّة، التي انطلقت من منطقة طرابلس، وامتدّت إلى القانيم والعويضه، والبوركو. وبقيت حتى سُحق اتباعها سنة ١٩١٧، عند اغاديس. وكان ذلك على أيدي بعض القوات الفرنسيّة. ومسلمو السودان الغربي، الذين لا يعرفون شيئاً عن الحركة الوهّابيّة، يجهلون ما هي السنوسيّة.

وحيثما كان يلتقي هذان المجريان، فبدلاً من ان يذوب احدهما في الآخر، كانا موجودين اساساً لكلّ الاضطرابات، كما يشهد لصحة هذا القول تاريخ السودان الأوسط: بورنو، وقانيم، وباغورمي. ففي كل مكان، الايمان بالدين الجديد كن عملا طويلا تكتنفه ظروف غير ملائمة. والشرع القرآني لم يتناول غير المؤمنين؛ واللغة لم تلعب الا دوراً ضعيفاً؛ وتأثير الفن العربي ظلّ ضعيفاً ايضاً. واخيراً، كبرى المصائب انه من التشاد حتى النيل كان صيد العبيد يجتاح كل السودان الاوسط. أمّا الطابع الاكثر انتشاراً، عند الفولبيس والسودانيين الاوسطيين، من الطوابع الاسلامية فكان اللباس: ثياب فضفاضة، وكوفية وعقال، كلها كانت شيئاً مضاداً عري الفلاحين السود، وكانت ايضاً شارة الغنى والتفوق الاجتماعي، في كل السودان.

وبقيت افريقيا الاسلاميّة، حتى مجيء الاوروبيين إلى القارة السوداء، غير مندمجة في العالم الاسلامي. فالتأثير الاوروبي، اليوم، بتسهيله وسائل المواصلات بين الشرق وافريقيا الغربيّة

سهل وقرّب التواصل في الامور الأخرى . فالسفر إلى مكة المكرمة لم يبق حافلا بالأخطار : في السيارة، في الطائرة، يمكن الانتقال إلى البعيد البعيد، في أيام قليلة . وهكذا اصبح الاسلام الاسود مدعوّاً للحوار، وللعلاقات الوثيقة، مع مصر وتركيا .

الفصل الثالث

الممالك الافريقية السوداء

١ – ساحل الغينه

اذا تتبعنا الاقليم الساحلي ابتداءاً من مصب السنغال نلتقي، أولا، الوُلوف، ينقسمون لى ثلاث مملكات صغيرة : الوالو، والجولوف، والكايور، وكلها معروفة، في كل زمان، بتنظيمها. وبعد تلك، نصل إلى مملكة كبيرة معروفة بزراعتها الدائمة الازدهار تُدعى بلاد السين « Sine » . واذا مضينا نحو الجنوب، في منطقة فوتا ديالون الجبليّة وجدنا شعباً هو مزيج من الفولبيس والسّراكُلّي، والتوكولور، والماندِنغ، هذا الشعب ألّف أمّة عُرفت بالفولا ؛ اشتهروا بكونهم رعاة وفلاحين مسلمين يتكلمون لغة الفولبيس . واسسوا دولة تيوقراطيّة تشبه دولة الفوتا تورو، وعاش فيها تذوّق الدّرس والادب بصورة دائمة محترمة...

ونصل بعد ذلك، إلى نثار قبائل، داخلتها عناصر من الماندنغ والفولبيس، فألقت بها إلى مناطق موحلة على الساحل، او في

جزُر تغطيها الغابات . واننا لا نعرف الا قليلا عن هؤلاء الشعوب وابرز ما نعرفه انهم حفظوا لجيرانهم الاقوياء خزّاناً من العبيد، الذين يشتريهم النخّاسون، ويذهبون بهم عبر الاطلسي فيبيعونهم في المستعمرات الاسبانية، والبورتغالية، والانكليزية، والفرنسية، حيث يستخدمونهم في نقب الاراضي البور .

أمّا اذا وصلنا إلى جمهورية ليبيريا، فاننا نقع على دولة حديثة، أسست سنة ١٨٤٧ بأيدي عبيد أعتقوا فتحرروا . انهم جاؤوا من الولايات المتحدة ليبنوا دولة على غرارها . والليبيريون الحقيقيون سود او كميتيّون، من أصل اميركي، يقطنون الجوار المباشر للعاصمة مونروفيا، ويمارسون مراقبة محدودة على الاراضي التي اعترفت لهم بها المعاهدات ، التي عُقدت مع كل من فرنسا وبريطانيا العظمى .

وفي جنوبي ليبيريا نجد الغابة والضواجي آهلة بجماعات من السكّان، الذين بلغوا مستوى سياسيّاً رفيعاً، بينما نجد آخرين لم يرتفع مستواهم إلى أكثر من مستوى قرية عادية . وسكّان باعولة هم اليوم اربع مئة الف نسمة ينتشرون على السّهب الذي يقسم كتلة احراج الشاطىء العاجي إلى قسمين تحت خط العرض البواكي. وهناك اسطورة تحدث عن مجيء هؤلاء الناس من جهة الشرق، بقيادة ملكة بطلة . ودخل جيرانهم الشرقيون، المعروفون بالأغني ، الغابة . فتلاقى الشعبان، وهما يتكلمان لغة واحدة،

ويظهران في مستوى من الحضارة يقارب مستوى حضارة الأشانتي في غانا حالياً. ومملكة أشانتي ، المحبة الحرب ، وعاصمتها كوماسي ، تعود نشأتها إلى أوائل القرن الثالث عشر . وقد عرف معظم سكانها فناً دقيقاً رفيع المستوى ؛ فكانت المتاحف تتنازع الاقنعة والدمى الخشبية المصدرة من تلك المناطق . كما تتنازع العيارات الصغيرة، التي كانت تستخدم لوزن الغبار الذهبي ؛ وخاصة العقود الذهبية، التي تتمثل عليها دقائق تلك الدمى الفنية .

واذا تقدمنا، نحو الشمال، نجد الاراضي المغمورة بفرعي الفولتا، وهي التي تؤلف بلاد موسي ، المشتملة على مملكتين، هما أواغادوغو وياتنغا، وتعود نشأتهما إلى أوائل القرن الحادي عشر. وكل واحدة من هاتين المملكتين تنضوي تحت سيادتها ولايات تابعة لها، يحكمها اقرباء الامبراطور بحرية تامة، وصلاحيات مطلقة ، لقاء ضريبة سنوية ورديف عسكري يستدعى عند الطوارىء. ولكن بلاد موسي ، التي استمرت مؤسساتها، واجتماعياتها، واخلاق اهلها على حالها حتى زمن الاستعمار، بدت دائماً، عدوة كل التأثيرات الخارجية، وخاصة الاسلام. وعلى الاجمال، فقد بقي تاريخها يكتنفه شيء من الظلام . وهناك حقيقة يستطاع قولها، وهي : ان امبراطورية أواغادوغو لم تلعب أي دور في أحداث السودان الغربي ، بينما الامبراطورية

الشمالية، ياتّنغا، قرنت مصيرها بمصير امبراطوريات ماندنغ وسونغاي.

أمّا مملكة فادان غورما التي كانت قائمة على الاسس ذاتها، مؤلّفة من ثماني عشرة ولاية، فانّها بقيت مستمرّة الوجود على ممرّ الأجيال.

وسواء أكانت تلك الانهر الصغيرة قائمة في اجزاء من ارض الشمال او الشرق، فانها كانت كلها تخترق افريقيا لتصب في النيجر أو في بينوي، رانده؛ وهكذا كانت كلها تبلغ خليج الغوينه. وكل ما يحمل إلى افريقيا من الخارج كان يلقى وجوده متجدّداً على هذه الارض، او على الاصح، المنطقة التي بلغت عليها الحضارة الافريقية احدى ذراها. وفي سنة ١٨٩٤، ألحقت فرنسا بمستعمراتها مملكة الداهومي؛ وهي دولة تأسست في أوائل القرن الثاني عشر، فكانت عاصمتها أبومي. وكان ملوكها محاربين كباراً وقناصة عبيد، عرفوا كيف ينظمون دولتهم. أمّا عاداتهم، في دفن ملوكهم، فهي شبيهة بعادات جيرانهم في مملكة بينين، وتذكّر، بشكل بارز، بعوائد الغانيين، في دفن ملوكهم، ايضا: غرفة قبر، وعبيد أضاحي على شرف الملك واجداده؛ فلهم كلهم حق الإجلال.

وهناك، بين الداهومي ومنافذ النيجر، مقاطعة كبيرة مسطّحة تحيط بها بحيرات صغيرة؛ ويقطن هذه المقاطعة اكثر من أربعة

ملايين انسان، هم خليط من شعوب متعدّدة : من بينين، ومن نوبه، ومن إيبو، ومن غاروبا . وفي هذه الاخيرة عدد كبير من المسلمين . وبعض هذه الشعوب يدّعي أصلاً شرقيّاً ؛ ولا غرابة في هذا الادعاء، فبعض المؤثّرات الشرقية بادية ؛ ولذلك، فمن صواب القول ان نردّ تلك العناصر إلى وجود الاسلام . امّا التنظيم المدني فجدير بالتقدير، تشرف عليه حكومة متسلسلة الوظائف . ولكنها مختلطة المهامّ ؛ وتقوم بالترابط الاجتماعي جمعيات، ما بين سريّة النظام وعلنيته، ولكنها، على الاجمال، ذات حيويّة فاعلة : دينيّاً وسياسيّاً .

ومنذ ما قبل القرن الخامس عشر، كانت مملكة البنين [1] دولة قويّة اشتهرت بصناعة البرونز، وصناعة العاج، فكان لها فيهما تحفٌ فنيّة، في زمن، كانت فيه اوروبا تجد صعوبة في كفاية الصناعيين السود من النماذج، كقواعد يستوحونها . وهذه الصناعة البرونزية انتشرت من الداهومي وغانا ، حتّى جنوب الكاميرون، في بلاد بامون .

---

(١) Bénin مملكة قديمة على الساحل الغويني في الغرب من دلتا النيجر . Benin دون « أكسان » قسم من الخليج الغويني في الغرب من دلتا النيجر . أو مدينة في نيجيريا ، في الوسط الغربي، سكانها ١٠٠ ٧٠٠ نسمة (المترجم)

٢ – افريقيا الكونغوليّة
وافريقيا الجنوبية

الحدود بين افريقيا السودانيّة وافريقيا الكونغوليّة تتبع خطّاً يمرّ في شمال خط الاستواء ثم ينعطف نحو الجنوب، عندما يصل إلى الاوقيانوس الهندي. وتبدو افريقيا الكونغولية اقلّ ملاءمة من السّهب السوداني للسير الطويل وللعلاقات التجارية والسياسيّة، وذلك لكثرة ما يغشى معظم أرضها من الغابات الكثيفة، وما يخترقها من الانهار التي يستحيل عبورها في فصل الأمطار.

وعلى الرغم من هذه المصاعب الطبيعيّة، فقد قامت على تلك الارض ممالك كثيرة، مثل مملكة لُوَانْغو، بين بور – جانتيل ومصبّ الزّايير (الكونغو)، وذلك ما اشار اليه البحّارة البورتغاليون الأوائل، في أواخر القرن الخامس عشر. واللّوانغو كانت تشتمل على دولة سيّدة على دول أخرى، كانت آهلة باجداد الفيوت والبافيلي المعاصرين، مثلما كانت امبراطورية غانا او مملكة موسّي آهلة بأمثالهم. وفي أواخر القرن الخامس عشر، كانت مملكة اللوانغو [١] والدول التابعة لها تبدو خاضعة لملك الكونغو، صاحب

(١) وتسمى هذه المملكة ايضاً مانيكونغو.

السلطان الممتد من سيتّي كاما، في الشمال، حتى هو ـ زامبيز في الجنوب الشرقي. وبتدهور سلطة امرائها، الذين كانوا يستفزّون الامراء، التابعين لهم، ليستقلّوا، راحت هذه الدولة تتهاوى شيئاً فشيئاً. فلم ينقضِ القرن التاسع عشر، حتى أمست دولة الكونغو ولايةً صغيرة.

وفي شرق اللوانغو، وشمال شرقي الكونغو، تبدو، لراكب حصان يسير على حافة النهر، مملكة أنسيكا وأنزيكانا. وهذه المملكة كانت آهلة بشعبيّ الباتيكي والبيّاكا. ولهؤلاء، اليوم، جيران في الغرب، جاؤوا من الشمال، يخشاهم كل سكان الساحل.

وتمتد، في جنوب امبراطورية الكونغو، على طول الاوقيانوس، دولة دنغو، التي كان ملكها يحمل لقب غولا. ومن اسم الدولة، ومن لقب الملك جمع البورتغاليون اسم انغولا. ولم نكن نملك ايّة معلومات ذات قيمة عن هذه البلاد، قبل أن جاءَها الاوروبيّون. ولكنّ ابحاثا حديثة، جرت في مجالي علم الآثار والمؤثرات البيئيّة، تمكّن من القول ان كلّ الجوف الافريقي، وكلّ البلاد الانغوليّة حتى قناة موزامبيك، عرفت حضارة واحدة: فالتقاليد المحليّة مختلطة فيها، واختلاطها يبقى فيه من الوضوح الدالّ على وجود سابق لدول قويّة غير دولتي اللّوانغو والكونغو، وأنّ ملوكها كانوا من أصل مشترك. وبتأثير الانشقاقات في

الحكم، والنزوح هرباً من تعسّف المسلطين من العائلة المالكة، تفشّت الحضارة شيئاً فشيئاً خارج هذه الدول.

وعندما اجتاز البورتغاليون رأس الرجاء الصالح، سمعوا مخبرين يتحدثون عن مونوموتابا العظيم الرائع، الذي كان، حسب زعمهم، يحكم بلاداً تمتد من زامبيك إلى الرأس. ولكن حدود الامبراطورية تغيرت، تبعاً للعصور في تسلسلها وللملوك في شخصياتهم. وقد دخل البورتغاليون في علاقات مع سكان تلك البلاد، التي كانوا يتطلّعون إلى استخراج الذهب الكثير من مناجمها، لكن دون جدوى؛ كما كان قدجرّب، من قبل، سليمان في روديسيا. والآخذون بتجربة سليمان يزعمون ان «أوفير التوراة» هي روديسيا، اليوم، نفسها. ومما يثير الفضول للتقصّي في البحث، تلك الخرائب التي تشتمل عليها هذه البلاد، ولا سيّما في زيمبابوي. وقد بدأ الاهتمام بها جدّياً، منذ اكتشافها سنة ١٨٦٧. واكثرها أهميّة الهيكل المنحني المحيط الماثل في زيمبابوي، جدرانه من الحجر المدقوق ولكنّه غير مُطيّن، تبلغ سماكة كل حجر من ٤ إلى ٥ أمتار؛ وهناك برج يبلغ ارتفاعه اثني عشر متراً. وقد كشفت التنقيبات الأثريّة عن بقايا فخاريّة تشبه الفخاريات الحديثة، وعن قطع من الزمرّد الزجاجي الازرق، وعن حُطام من البورسلين الصيني. وكان من الصعب، في ما بين القرن السادس والخامس عشر، ان يقوم السود ببناء مساكن في جوار

المناجم الذهبيّة، التي يجري استخراج الذهب منها من زمن بعيد. والمقايضون العرب، الذين كان هذا المعدن الثمين يستهويهم، كانوا يقايضون عليه بأوانٍ للخدمة المنزليّة، وبقطعٍ للزينة يحملونها من بلاد الفرس، والهند، وماليزيا.

إن ما يمثل من آثار، لعينيِ المشاهد، في أنغولا، من الابنية الحجرية والابراج، التي تشبه ما هو من نوعها في روديسيا، يحمل على التأكيد ان تجانساً حضارياً كان قائماً بين شعوب البلاد المنتشرة من أنغولا حتى موزامبيك. وهناك، في الجوف دول من الاصلاء الافريقيين، ينتمون بعرقيتهم إلى هذه المجموعة، ولكنهم من حيث الوجوه الحضارية، تأثروا ببعض العوامل الخارجيّة. ويمكننا ان نسمّي بعضاً من هذه الدول، على سبيل ذكر الشاهد:

مملكة باروتسيه على وسط الزامبيز؛ ومملكة لوندا على القيعان المرتفعة على نهري: كاسايي والزامبيز؛ ومملكة كاتانغا، في المنطقة الجبليّة عند منابع الكونغو؛ وبعيداً ايضاً إلى الشمال، مملكة أوْروا او بالوبا، سكانها اقرباء أهالي مانياما وبالوندا؛ وإلى شرق البحيرة نفسها، نجد أونيامْوازي مع تابعتيها: روأندي واورونْدي؛ واخيراً، أوغندا مع تابعتها أونْيورو، إلى شمال بحيرة فيكتوريا.

وكانت كل هذه الممالك تقوم على المبدأ نفسه؛ فكل حكومة، في هذه الدول، كان على رأسها مجلس وزراء يرأسه

الملك . وكانت مملكة الكونغو مقسومة إلى أربع ولايات، موزّعة على الجهات الأربع، يحكمها اربعةُ أمراء؛ ويقوم إلى جانب الملك ابنُ أختٍ له، ويكون هذا المركز الرئيسي وسطاً لعالم الدولة . وفي الوقت نفسه تلعب ام الملك واخته دوراً بارزاً في سياسة المملكة، وكلّ منهما لها عاصمتها، وبلاطها، وحكومتها. والأميرات كنّ ينتقين الزوج، لزمن محدّد، فاذا انقضى الزمن، او لم يعد يروق الزوجة الاميرة أبعدته، أو أمرت بقتله . واذا كانت سلطة الملك تتراءى انها مطلقة، فانها، في الواقع، غير ذلك . فالملك كان يحيا سجين الإرادات الزاجرة التي كانت تصدر عن حقّه «الالهي»؛ وموعد موته كان يحدّد قبل حينه بمدة طويلة، ويبقى الموعد سرّاً، فترافقه ضحايا بشريّة، لأنّ الملك لا يجوز ان يصل وحيداً إلى مدينة الاموات . أمّا احتفالات التتويج فكان قوامها تعداد اسماء اجداد الملك، المتجسدين بشخصه عند التتويج . وبعض هذه الممالك عرفت، في القرن التاسع عشر، بعض كراسي الاعتراف، دعت إلى وجودها خصومات كانت تفعل بين الكاثوليك الجُدد والانجيليين . وبناء على التناحر، راحت أوغاندا، في عهد الملك الكاثوليكي نتسا، تخوض حرباً دينية دامية استمرّت في عهد خلفه موأنغا، ولم تنته إلاّ بعد أن اعتنق موأنغا المذهب الانجيليّ سنة ١٨٩٢ . وهناك في افريقيا الشماليّة، وفي السودان الأوسط، وقعت بين

الأديان المحليّة والاسلام الوافد عليها حروب مماثلة وان اختلفت الاسباب .

وعندما نفقد الدلائل الثابتة نُحلّ مكانها الافتراضات في ما يتعلّق بنموّ الدول الافريقية، التي نجهل كل تاريخها تقريباً : من ولادتها ، فاتّساعها الباغت، فانحطاطها المفاجىء ؛ كل هذه الاحوال نستطيع التثبّت من مجاريها بقياسها على الوقائع التي حدثت في الجنوب الافريقي، في القرن الاخير . ففي النصف الاول من القرن التاسع عشر، نشأت دولة قويّة، وكبرت بزخم رجل، وبتجمّع اختياريّ او اجباريّ يحدث لوحدات صغيرة من البشر، كانت، حتّى ذلك التاريخ، منعزلة . ففي سنة ١٧٨٧ وُلد في بلاد زولوشاكا طفل تاعس، ما ان شبّ حتّى لجأ يحتمي من بؤسه بجار قادر . وهذا القادر تبنّى اللاجىء وجعله وريثه . وما ان تسلّم شاكا السلطة حتّى نظم رعيته تنظيماً عسكريّاً، قائماً على التنظيم الاجتماعي القائم، ملائماً ما بين الكفايات والأعمار . فكان له جيش مقسّم إلى فرق منظّمة مجهّزة تجهيزاً جديداً ومدرّبة تدريباً حديثاً . وبدأ فتحه بالحاق الشعوب المجاورة برعيته، واخضاعهم على الدخول في جيشه، واجبارهم على اعتماد اللغة الزوليّة لغتهم القوميّة . ففي سنة ١٨٢٠، كان جيش شاكا يعدّ مئة الف محارب، ورعيته تبلغ نصف مليون من الناس . وكانت خاصّته من المتعلمين، والقائمون

بأعماله في الحرب من المتمرّسين بالتحركات العسكريّة.
وهكذا كانت تعود قوّاته من حملاتها الحربيّة غانمة، كما حصل في حربه التونغا، والماسهونا، وبعض قبائل نياسّا، في الجنوب الغربي الافريقي. وبفعل هذه الانتصارات دخل في الحكم الزولي مليون من الرعايا الجدد. وعندما تمركز الانكليز في ناتال والبوير، من بلاد الترنسفال، وجّهوا حملات متعدّدة ضدّ الزّوليين. وفي سنة ١٨٧٩، هدّد سيتيوايو، ملك الزّولو، بلاد ناتال؛ ولم يستطع الانكليز دفع الخطر إلاّ بعد حملة صعبة.

٢ المجتمعات

الفصل الاول

نموّ المجتمعات

انه من الصعب، ان لم يكن من المستحيل، ان نُعيّن حدوداً لعهود من الحضارات في افريقيا، ذلك لأنّ ما سبق ان قدّمنا من التاريخ المفصّل لا يسهّل المهمّة . فالأمن مفقود، والسلب موجود، والخراب كثيراً ما تراكم بعضه فوق بعض بالتكرار، حتى غابت كليّاً، في بعض الاحيان، مقاطعات صغيرة عن متناول الباحث. ومن جهة أخرى، كثيراً ما حدث ان شعباً اضاع هُويّته الاجتماعيّة، عندما أُجبر على الاندماج في مجتمعات جديدة . اإذا استطاع المغلوبون المجبرون ان يحتفظوا بالقليل من طوابعهم 'اصّة، فان ابناءَهم لن يلبثوا ان يذوبوا في هذا الجديد الذي ـوا فيه . وهكذا لا يبقى لنا ممّا يصلح ان نمسك به، لنمضي

في ما نحن مواجهون ، غيرُ تطرّفات خاصّة ببعض الجماعات البشريّة، مضافة إلى انتشار بعض العناصر الحضارية، التي غالبا ما تكون غير قياسيّة .

طريقة الحياة ونظام الاقتصاد كثيراً ما كانا يستمدّان وجودهما وشكلهما من النموذج الجغرافي الذي يعيشان فيه، ومن التوزيع الطبيعي في النبات، ومما يُستخدم من الحيوانات الداجنة . ولعل جدولاً بالنباتات الاقليميّة ، يقتضي ذكره لكي نتبيّن كيفيّة توزيع الجماعات البشريّة، اذا لم نكتفِ بمعرفة اساليب الحياة وانظمة الاقتصاد . والرحّل الجمّالون، وحدهم ، قادرون على العيش في الصحارى، خارج الواحات، في حين كانت الغابة ما تزال حَرَماً على الماشية، التي كانت قوام الحياتين الماديّة والاجتماعيّة، في افريقيا الشرقيّة .

١) لم يبق من سكّان في صحراء كالاري غير جماعة البوشيمان، وهم الممثّلون الأواخر للإنسان في معايشة الحيوان، والبقيّة الاخيرة من البشر الأقدمين في افريقيا القديمة . وهذه البقيّة البشريّة تعيش في أقسى ظروف العيش، تقتات بما تصيبه من صيد ، اصبحت طرائده قليلة، وفي تناقص مستمر .

٢) وهناك الهوتانتو، الذين تحدّروا، على الارجح، من تزاوج بعض البوشيمان ببعض السود، يقضون حياتهم متنقّلين

من مرعى إلى آخر، في كل الجنوب الغربي الافريقي. وعدّتهم، في هذا التنقّل، ثورٌ حمّال، وزقّ «ضرف»، ماءٌ مصنوعٌ، من معدة حيوان، وكوخ من اغصان يسهل حملها.

٣) وسائل التحقيق المعتمدة أخذاً عن معايشة الحيوان[١]، والتميّز الاقليمي[٢] لا العرقي نستطيع استخدامها لنرى في جماعات البيغمي، المستوطنين في الغابة الاستوائية، صنفاً بشريّاً متميّزاً، وحضارة متميّزة، حيث الصيد ما يزل عمل الرجال، وجمع الحطب عمل النّساء.

٤) الشمال الافريقي صعيد الحياة الواسع لمربّي الدّواجن ورعاة القطعان. فالاهتمام بالبهائم يسيطر فيه على الحياة، لا الماديّة فحسب، بل وعلى الحياتين: الاجتماعية والدينيّة. والزراعة، هناك، تمارسها طبقة من الوافدين القدماء، هبطت إلى درك العبيد. هذا حيث تمارس... وتُظهر الطبقة العليا، المشتملة على الغزاة، احتقاراً للعمل الزراعي ولكل حرفة يدويّة. أمّا اللغات المعروفة في هذا الجزء الشمالي من افريقيا فهي اللغات المنتسبة إلى الجمهرة النيليّة في الشمال من بحيرة فيكتوريا، والمنتسبة إلى جمهرة بانتو في الجنوب.

---

(١) نذكر بما يقابلها بالفرنسية – Anthropologie

(٢) نذكر بما يقابله بالفرنسية – Ethnographie

٥) وفي كل القسم الافريقي، الكائن في الجنوب من الزامبيز، تتضاعف تربية المواشي، إلى جانب زراعة تلعب المرأة، في الاشتغال بها، دوراً كبيراً. وهذا الدور يتعاظم شأنه بنسبة ما يتعاظم عدد الرجال المنصرفين إلى العمل في المناجم، او في الاعمال الصناعيّة التي يطلبونها في الدول المتاخمة. وكان اداة زراعتهم ضربٌ من المعول والمجرفة مجتمعين، واصناف زرعهم الذرة، وانواع الكوسى واليقطين.

٦) وسود الغابة الاستوائية هم زرّاع ايضا، ولكنهم لا يعرفون مواعيد موسميّة لجمع حصادهم، وذلك بسبب الظروف المناخيّة. والقلقاسيّات يُكشف التّراب عنها عند الحاجة الاستهلاكية، وهكذا تنوب التّربة عن الكوارة، أي خزانة الحبوب. وليس، في المناخ هذا، مجال لوجود الأبقار فحشرة التسيه ـ تسيه حكمت عليه بالإلغاء. وهناك بيوت من لحاء الشجر، وكذلك ألبسة ايضاً من لحاء وقشور. فموارد الغابة بلغت الإفادة منها الدرجة القصوى؛ ولكنّ الطغيان النباتي يمكن ان يصبح، في بعض الحالات، عامل اختناق.

٧) والمنطقة العظيمة الاتّساع، المتمثّلة بالغرب الافريقي، تشتمل على شعوب من الغابة الغوينيّة، محافظين، اصحاب منافع خاصّة، وهم كالسوادنيين داخلهم الاسلام فكثر أو قلّ فيهم، عدداً وصحة اسلام؛ وفيهم من أبناء الطبيعة يعيشون

عراة، تقريباً ؛ وفي ما يتعلق بالتنظيم السياسي ، فليس لهم منه اكثر من وقوفهم في الصف ؛ ومثل هؤلاء ايضاً المتحدّرون من مدن سودانية متقدّمة ومن ممالك غوينيّة . وهم في كلّ بادرة يبدون اصحاب تعلّق ديني ، بالارض التي تغذيهم ، وبمثله نحو الأجداد، ومثل هذا التعلّق بالارض، وباحترام السلف حتى العبادة تقريباً، يجيز لنا القول : انهم اصحاب حضارة واحدة .

٨) أمّا الصحراء فهي المدى الذي يعيش عليه مربّو الجمال ، الذين تُلزمهم الطبيعة ان يعيشوا نحواً واحداً من الحياة . فلا معايشة الحيوان، ولا التميّز الاقليمي، ولا الجوامع اللسانيّة تظهر عليهم باكثر مما تظهر على الطواريج من تيدا او من تيبيستي ، ولا على المغاربة من تاغان ، ولا على عرب الواحات .

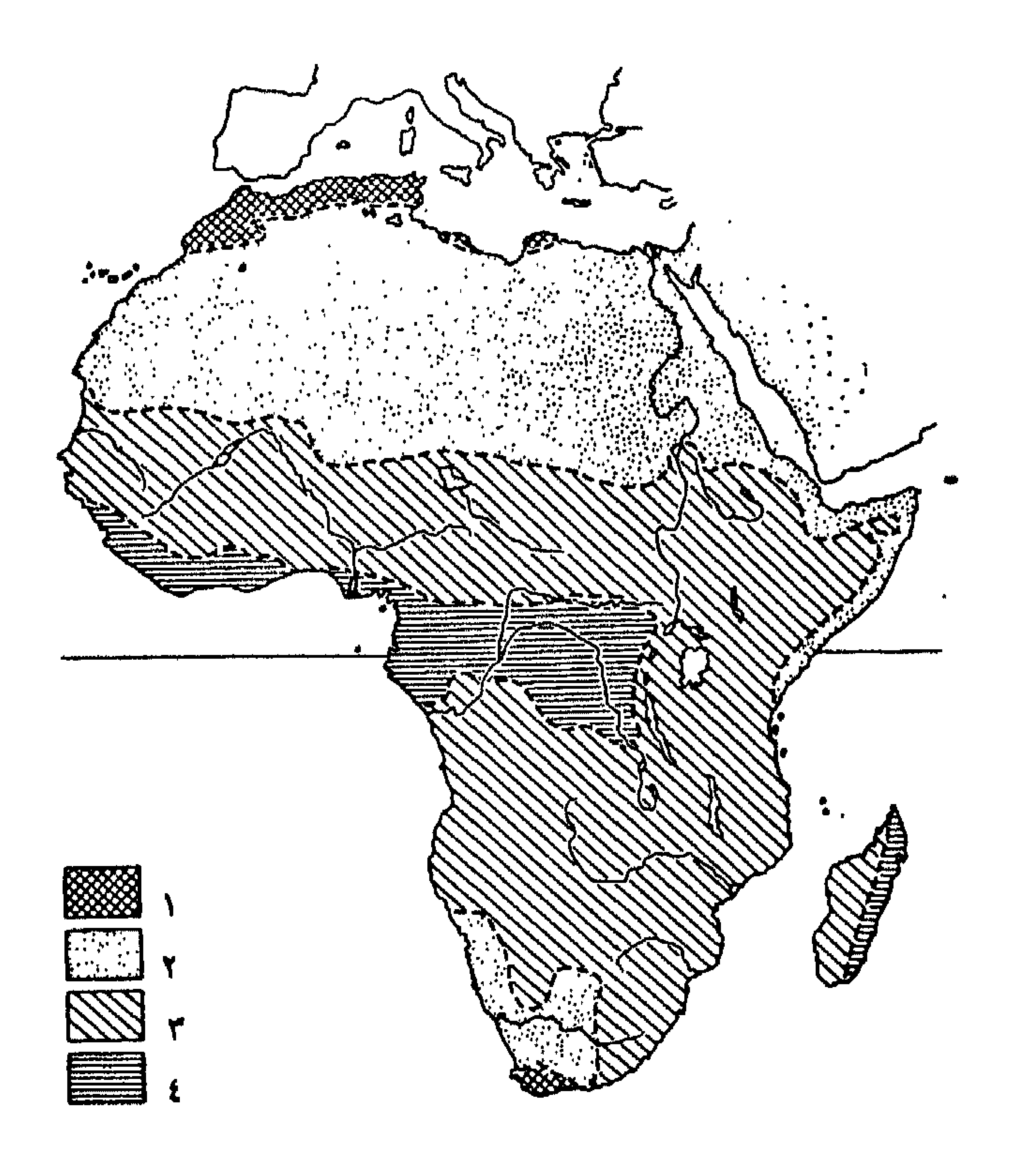
٩) وأمّا في السودان الشرقي فالحضارة السامية المسلمة هي المتفوّقة على سواها . فهناك السكّان، رعاة يملكون الابقار، والاغنام، والماعز، والخيل، وغالبا، يملكون الجمال . وسكان القبابيش يشكّلون جسراً واصلاً بين الحضارة الصحراوية الاصيلة وبين مربّي الماشية من « النيلوتيك » النيّليين .

١٠) واخير، الشمال الافريقي الذي يسكنـــه حاميّون شماليّون، وليبيّون أو برابرة . هذه المنطقة توافدت اليها المؤثرات الفينيقيّة، والمصريّة، واليونانية، والرومانية، والعربيّة، متتالية، في

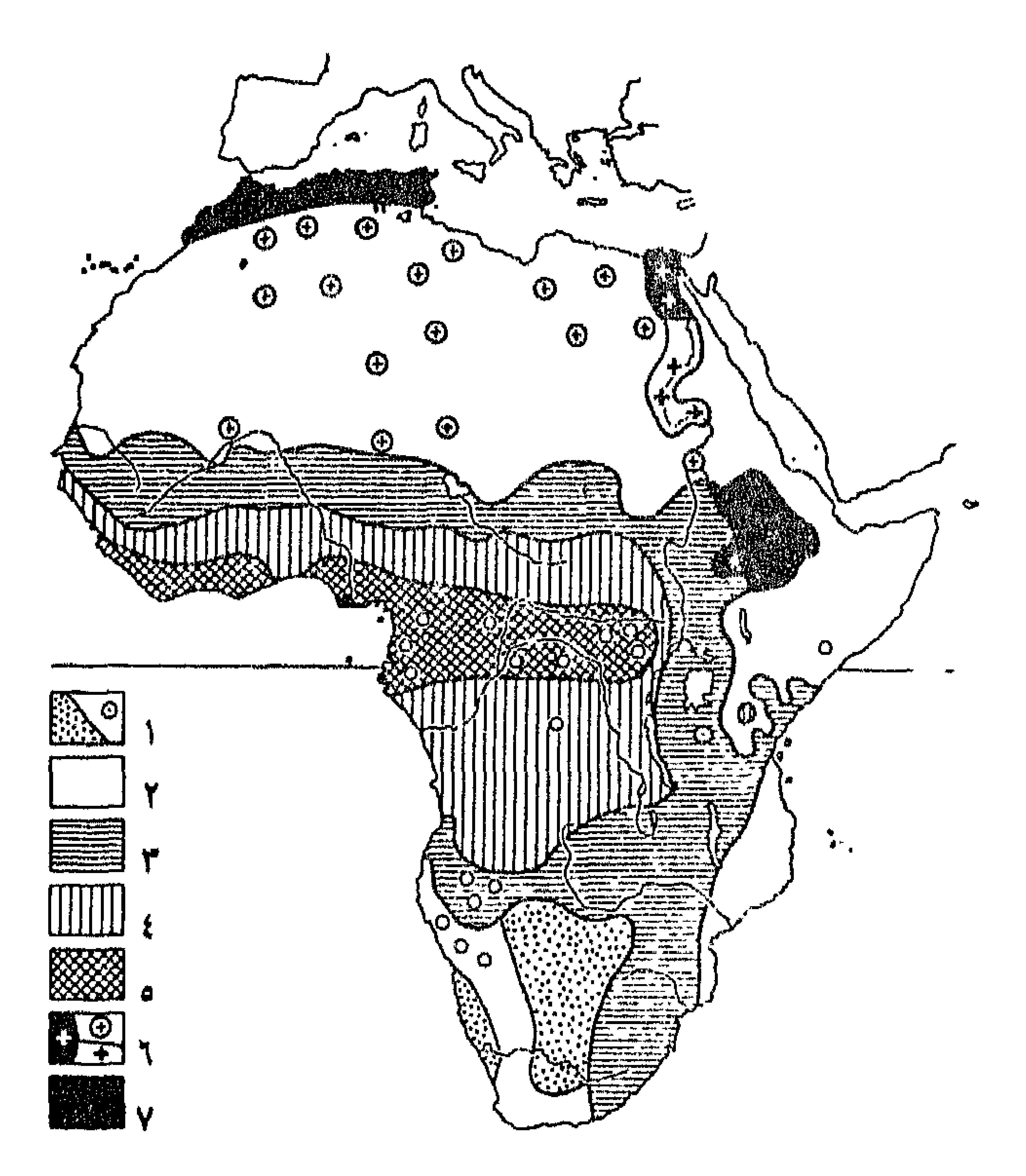
التأثير على سكانها، واحياناً مترافدة . وقد رأينا كثيراً من العناصر، المميّزة هذه المشاركات، تتسرّب عبر الصحراء إلى السودان حتّى إلى قلب خليج الغوينه .

١ – البوشيمان

اذا كان البوشيمان لا يمثّلون أسلافهم الأوائل فانهم، على الأقل، يستطيعون ان يكونوا الجماعة الأولى الّتي تصلح نموذجاً لأقدم من عايشوا الحيوان فتميّزوا بمؤالفته، في الجنوب الافريقي. ومنذ بضعة قرون، كان هؤلاء يشغلون كل المنطقة الواقعة في جنوب نهر الزامبيز . ومن تبقّى منهم، خلفاً حتّى اليوم، نراه يعيش مقصيّاً، إلى حيث صحراء كالاهاري، عيش الرحّل، هناك حيث لا مروج، ولا ارض خصبة تجذب اليها مستعمراً . وهذا الشعب، الذي طرد من كل مكان، يشهد اليوم صيّادي السلاح الناريّ، وقد اوشكوا أن يقضوا على انواع الطرائد الّتي هي قِوام غذائه . أمّا عدد البوشيمان فلا يتجاوز بعض آلاف من البَشر، من البشر، معظمهم من اللاجئين إلى السهوب المالحة، عند الحدود المتاخمة، بين الجنوب الغربي الافريقي والانغولا ؛ وبعضهم دخل الانغولا، من الجنوب . وعلى الرغم من تأثير جيرانهم المحسوس عليهم، الهوتانتو او السود، فليس



١ – نباتات متوسطية
٢ – صحراء
٣ – ادغال
٤ – غابة كبيرة ذات نمط استوائي



١ — صيد
٢ — تربية الماشية (بدو)
٣ — زراعة في موسم الامطار مع تربية الماشية
٤ — زراعة دائمة في موسم الأمطار دون تربية الماشية
٥ — زراعة دائمة
٦ — زراعة الواحات بواسطة الري الاصطناعي
٧ — زراعة بواسطة المحراث .

هناك تحضير بوشيماني يستحق الذكر، وهذا ما نلاحظه في المصوّرات الماثلة على جوانب الملاجىء، تحت الصخور، بواسطة الفحم الحطبي، او بالطبشور اللزج، أو بالدهن الحيوانيّ. وهذه المصوّرات تمثل مشاهد صيد، او رقصات، الغاية منها التأثير على الطرائد تأثيراً سحرياً، فنرى فيها الراقصين يقومون بتحركات تقليديّة يمثلون فيها حركات الطريدة. واحياناً أخرى، نرى، على بعض المصوّرات، معارك حربيّة بين البوشيمان وغزاتهم السود. والمصوّرات القديمة تثبت وجود الحيوانات التالية اسماؤها: بقر الوحش، الفهد، الجاموس، الفيل؛ وكلّ من هذه الحيوانات له اقليمه الملائم، وفصل صيده من السنة.

والسعي الدائم وراء الطريدة، والتفتيش عن الاماكن المائيّة النادرة تطبع الحياة بطابع التيه الدائم، حيث الملاجىء تُصنع غالباً من لحاء الشجر، وتغطيها الاعشاب. فلا زراعة، ولا تربية حيوان، فالكلب هو الحيوان الداجن الوحيد. ولكنّ تقنيات الصيد وسحره موسّعة جداً. فعلى احدى المصوّرات الصخريّة يشاهد الرائي صيّاداً مسلحاً بقوس، لابساً جلد نعامة بريشه، لينخدع بشكله النّعام فلا يهرب من أمامه. وهذه خدعة تستعملها شعوب افريقيّة أخرى. والقوس البوشيمنيّة قصيرة، وخشبها يشكل نصف دائرة، ووترها مأخوذ من الأعصاب الليفيّة الحيوانيّة. وفي عهد سبق الحدادة، كان الصيادون يجهدون

للحصول، من جيرانهم، على شوكات من حديد، يثبتونها على القبضات القصبيّة، التي يمكن انتزاعها ؛ واذا اعجزهم ايجاد الحديد، كانوا يفصّلون العظم او الحجر يحلّونه مكان الحديد. وكانت السهام تستعمل مسمومةً بعصير الاعشاب السامّة، او بسمّ الحيّات او العناكب المسحوقة. وكان الحيوان الجريح يستطيع ان يجتاز مسافةً ولكن الصياد يجبره على الركض، اذ يلحق به لينتزع الشوكة الحديدية ويُثبتها على قبضة أُخرى. والبوشيمان لا يستعملون قطعاً الفخاخ المعروفة عند السود.

والصيد همّهم المسيطر يداخل كل الحياة : فالصبيّ الصغير، قبل أن يبلغ عهد الرجولة، يجب ان يحمل، على ظاهر ظهره وساعديه، حزّات مستطيلة تُدلك بقطعة لحم فاحمة. وهذا، على زعمهم، يُكسب الصبيّ قوة الطريدة ومهارتها، فيتغلّب عليها رجلاً صياداً، وكذلك لا بدّ من ترك آثارِ جراح بين عينيه تجعلهما اكثر حدّة ونفوذاً إلى البعيد.

وبقدر ما تقلّ حيوانات الصيد تزداد مسؤوليّة النساء الموكول اليهنّ جمع الثمار. وكلّ ما لهؤلاء النسوة من عُدّة لا يتعدّى عصاً مثقلة بحلقة من حجر، ولها رأس صلّبته لفحات نار ؛ وكثيراً ما تكون هذه العصا مجهّزة بقرن في أعلاها. وقد تضمّ جعبات جامعات الغذاء، إلى جانب الثمار، بعض الحيّات او الجنادب والجراد. ولفقدان أواني الفخار كانوا يستقون المياه من

الأراضي الموحلة، بواسطة قصبة تنتهي بمثل سدّادة من عشب، تنوب عن المصفاة، يمتصون بها الماء ليضعوه إمّا في بيضة نعام او في زقّ.

أما لباسهم فكان يتألّف من جلد يلتف على ما فوق الفخذين ويمرّ طرفه ما بينهما، ومن جلد آخر يُلقى على الكتفين. وأمّا الحلى فهي مُعدّة من مستديرات مقتطعة من بيض النعام، مجموعة بصبرٍ وتأنّ لتؤلّف تاجا، ومن زجاجيّات، وحلق من نحاس، مقصوصة من قموع خلّفها جيرانهم السود؛ ومن قوقعة سلحفاة صغيرة، أو قرن بقرة وحشيّة تنبعث منه، على زعمهم، رائحة سحريّة، لأنّ الحلية، قبل ان تكون للزينة، هي طلسم.

وتتألف الوحدة السياسيّة والاجتماعيّة من جماعة الصيادين يديرها أمهرهم؛ ولا تعدّ الوحدة الجماعيّة اكثر من خمسين شخصاً، الاّ في ما ندر، وهؤلاءِ تتقاسمهم وجهات الصيد في ملاحقة طرائدهم. وفي الشمالَ الغربي يقيمون، على كل وحدة، رئيساً ورائياً يدير تحرّكات الجماعة، غير الرئيس المنتقى لإدارة الصيد. أمّا حدود منطقة الجماعة الواحدة فيُشار اليها بشجرة، او بمكان فيه ماء، او بخط من كثبان؛ ولا حقّ لغير الرئيس: في الاصطياد، أو الاستقاء، او جمع الحاصلات النباتيّة، عند الحدود؛ لأنّها دائما مهبّ الخلافات وموضوعها

الرئيسي . وليس هناك جماعة مستقرّة، لا خلاف على حدودها، غير الأُسرة المشتملة على الزوج والزوجة واولادهما الصغار .

والقرابة عندهم لا نظام لها بشكل واضح : فالرجال كلهم يدّعون انهم اقرباء الرئيس ؛ والمرأة يجب ان تنتقل لتقيم إلى جانب رجلها . أمّا في قبيلة نارون فالرجل يقضي السنة الأولى، بعد الزواج، عند أهل امرأته : فهم يفسّرون هذه القاعدة بأنها تفسح للجدّة بان تستقبل بخبرتها وعنايتها المولود الجديد .

وقد أخذت قلّة الطرائد ، ومصاعب العيش ، تفعل، في سكان اليوم، لتجعل منهم نباتيين، قهراً لا اختياراً ، وفي الصغر والكبر ، على السواء . ولهذا فقد كثر قتل الاطفال . وبما ان البوشيمان غير مؤهلين، لنحوٍ آخر من العيش، فانهم يسيرون في طريق الانقراض

٢ — الهوتانتو

القرابة، بين الهوتانتو والبوشيمان، تبدو غالباً في الصنف البشري وفي اللغة اكثر مما تبدو الحضارة الماديّة . فعلى اساس اللغة يُقسم الهوتانتو إلى أربع جماعات اساسية، اليوم : النّاما، والكورانا، والغونا، وقدامى الهوتانتو في الكاب ، وهؤلاء القدامى قد اختفوا عن عالم اليوم، ولكن احفادهم، المتحدّرين من زواج

مختلط بين اوروبيين وهندوس، يُعرفون حالياً، بالغْريكا والبَستار من ريهوبوث.

كان الهوتانتو، في ما مضى، يشغلون كل المنطقة الغربية من جنوب افريقيا، حتى نهر قونين في الشمال. أمّا اليوم، فاننا لا نجد منهم الاّ في القسم الجنوبي من الجنوب الغربي الافريقي، إلى الشمال من نهر أورانج. وعدد قد لا يبلغ عشرين ألفاً.

والهوتانتو رعاة يتتبّعون ماشيتهم من مرعى إلى آخر ؛ ولكنّ النساء يقمن بحلب الدرّ، وهذا شيء لا يمرّ في خاطر مربي الماشية في الشرق الافريقي، والثيران يمكن أن تُستعمل حيوانات حمل. ويبدو أنّ الماشية، في هذه المنطقة، متفرّعة من النوع الضخم الجثة، والظهر المستقيم والقرنين الطويلين، وهو النوع الباقي، حتى اليوم، في افريقيا الشرقية، مختلطاً بنوعيّات أخرى، ابرزها ما ادخله المستعمرون الهولنديّون إلى أوروبا ؛ فكان هذا الاختلاط سبباً في تحسين النموذج الأصلي. وكان الحليب يحفظ في أجران من خشب، ثم يشربونه مروّباً ؛ وإلى جانب اللبن، كانوا يتغذّون ببعض الثمار ذات البذور، وببعض الجذور. اما اللحم فلا يدخل طعامهم إلاّ في الاعياد. ويحجز على الماشية في حظائر مسيّجة بطوق من الاشواك. وأمّا الاكواخ فهي أفضل منها عند البوشيمان ؛ لأنها مبنيّة بأغصان كبيرة منحنية، تشبك ما بينها

بُناتها من الرجال، لتقوى على تحمّل الحصُر التي تحوكها النساء . وأرض هذه الاكواخ تسوّى بخليط من روث البقر والدم .

واذا نظرنا إلى مجتمع هؤلاء الرعاة، اليوم، رأيناه خراباً، تقريباً في حين كان في الماضي أعقد من مجتمع البوشيمان، وأقلّ تعقيداً من شعوب الشرق الافريقي . اذ كان لكل قبيلة، يومئذ، رئيسها، وأماكن الاستقاء، ونطاق من الارض معيّن . ثم إنّ كل قبيلة تتضمن عشائر ابوّة [1]، واخرى غريبة الامومة [2]، مع نظام قرابة مصنّف، حيث كل عشيرة تحمل اسم جدّها الاول . وتسلسل السيادة، بعضهم على البعض الآخر، يقوم على الأخذ بالاعمار، في العلاقات الداخليّة، ورئيس القبيلة يعتبر دائماً الاكبر سنّاً . ورجال الهوتانتو متعدّدو الزوجات، والمرأة تعيش مبدئيّاً في الانتساب إلى حميها، وتدبّر منزلها وتتصرّف بالحليب الذي حلبته . واطّلاع الذكور والاناث من مواليد القبيلة على تقاليدها يتم بصورة فرديّة ؛ ويبدو ان الخاصّ منها بالذكور قد فقد كثيراً من اهميته بعد غياب الطرائد الكبيرة . وتُعزل الابنة بعض الوقت، لان مراسيم نضوجها الجنسي تقتضي تطويل الغدد الجنسيّة الخارجيّة، وهذا البروز في الغدد هو ما يسمّونه « مئزر الهوتانتو » . وعند دخول الفتاة حياة المجتمع يجب أن

---

(١) اي يكتفون فيها بذكر الاب clans patrilinéaires (المترجم).

(٢) اي تكون الام فيها غريبة – clans exogames (المترجم) .

تتمرس بواجباتها اليوميّة على يد ربّه منزل تعلّمها جمع الحطب وقطف الثمار، وتمسك بيدها لتعلّمها كيف تحلب الضرع، واخيراً، ترشّها بالماء وتفركها بالوحل؛ والماء، في هذا التقليد، له قيمة المطهّر.

وعند الوفاة يغلّف الجثمان بجلود مخيطة؛ وفي الماضي البعيد، كانوا يدفنون الميت، وهو في شكل الجالس حيّاً، ناظراً نحو الشرق؛ وكانوا، بعد الدفن، يهجرون كوخ المتوفى وباحته. ومن واجب الأرمل او الارملة عندهم الامتناع، مدّة من الزمن، عن الاقتراب من الماشية، وعن حمل أواني الحليب، وعن أكل اللحم نيئاً، وعن شرب الماء بارداً؛ فاذا مسّته الماشية تدنّست. وتختتم مدة الحداد بعمليّة تطهير، تتبعها وجبة أكل ومعاودة الواجبات اليومية بشكل يذكّر بالاحتفال الذي يُنهي الرياضة التحضيرية لانوثة الصبيّة.

وبالنظر الى طبيعة الجنوب الافريقي الجدباء، والخوف من شحّ الماء او انقطاعه فتهلك الماشية عطشاً، وملوحة بعض السّهوب تملّك الاهتمام بوجود هذا العنصر الحياتي على الهوتانتو تملّكاً تميّزوا به: وهكذا فان الطبيب الساحر يجب ألاّ يغتسل ابداً، لأنّ سلطته تنحلّ بانحلال إتّساخ جسده؛ وهناك اطباء ذوو طاقة فوق الطبيعة يمكن ان يخسروا هذه الطاقة ان هم غطسوا في ماء بارد. وفي قبيلة النّاما يجمع الاحتفال السنوي بالمطر كل

افرادها، فيذبحون الأضاحي استدراراً للخصب وسعة العيش،
والأضاحي في هذه المناسبة السعيدة نعاج حبلى، لا يجوز ذبحها
في غير احتفال مهما عظم شأنه. وفي بعض القبائل يغتنمون
فرصة الابتهاج بأول عاصفة ممطرة، فيدفعون بفتيات مراهقات
يركضن عرايا تحت المطر ليغسلهنّ ويضمن لهنّ خصباً في
الأرحام.

والهوتانتو يعرفون إله السماء، يسمّونه — Tsui Goab —
تسوي غواب، يأمر العاصفة والأمطار المخصبة. ومواصفات
الحدّ الأعلى يحكّمون فيها الشخصيّة الثانية في «الميثولوجيا —
أساطير الآلهة»، وهي — Heitsi Eibib — هيتسي إيبيب.
هذا ما يعرّفه البوشيمان بحامي الصيادين ومخصب المراعي.
ما سرت في تلك البلاد تقف امام حجارة، موزّعة على أماكن
ة، في طول البلاد وعرضها، يزعمونها قبراً لهذه الشخصيّة
اوجيّة. وللقمر عندهم نوع من العبادة، فهو، على حدّ ما
في اسطورة، ذو علاقة أصيلة بنهاية الاعمار.

غير انه، وان كان الهوتانتو يشبهون البوشيمان اكثر من
شبههم جيرانهم الآخرين، فليس من الجائز ألاّ نتبيّن ما بينهم
من فوارق. فالتفتيش عن المراعي يسيطر على تنقّلات الهوتانتو
... الانتفاع بتربية المواشي وانتاجها هو الصفة المميّزة حياتهم
— ولكنّهم لا يذبحون غير الاضاحي —؛ والماشية، بوجه

عام، تدخل في مشاركة الاحداث الهامّة؛ فالاشخاص المقطوعون عن الحياة العامّة لوقتٍ ما، كقطع الفتيان، في مقتبل دخولهم طور الرجولة ودورها، وكقطع الارامل من الجنسين، لا يُسمح لهم بالاقتراب منها، لأنّهم إن فعلوا يدنّسون أنفسهم، والماشية، والجماعة التي هم منها .

٣ ـ البيغميّون او أقزام الغابة الاستوائيّة

البيغميّون لا يعيشون في معزل عن الجيران، كما هي حال البوشيمان، فهم على اتصال دائم بجيرانهم السود، ويقايضونهم اللحم بالموز والفستق واشياء أخرى. وكل جماعة من هؤلاء الاقزام، هم عادةً، زبائن رئيس اسود، ينقل علاقته بهم إرثا لابنه من بعده. ويُعرف عن البيغميين أنهم يقلّدون مختلف الجيران. يقلّدونهم في اللباس، وحاجات العيش، والنّظم الاجتماعيّة؛ كالختانة مثلا. ولذا فانّه يتعسّر على متناول التعريف بهم أن يُفرد لهم عناصر حضارة خالصة الانتساب اليهم؛ لفقدان ما هو لهم وحدهم. فالبيغميّون يتكلمون ... الخاصة بأسيادهم السود؛ واذا كان بعضهم يظهرون، وكأ... يحتفظون بلغة خاصّة بهم، فان القرائن المميّزة ما تزال ... البحث عنها .

وهؤلاء الأقزام يقسمون، عادةً، إلى ثلاث جماعات : جماعة الشرق او البامبوتيين، ويعرفون بـ « رجال الغابة » ؛ وجماعة الوسط، وهم سكان شواطىء روافد الكونغو، من جهة الشمال ؛ وجماعة الغرب، على الغابون، عند مصبّه. امّا عددهم المجمل، وفيه المدعوّون بالماتيين، فيبلغ حوالي مئة وعشرين ألفاً. ولكنّهم ضائعون في مجاهل الغابة الافريقية الوسيعة. والناظر إلى الفسحة القائمة، بين بحيرة ألبير والاطلسي، يظن ان تلك السهوب لم تطأها رجل انسان. فهم، على حدّ قول « P. Schebesta » « أولاد الغابة الاستوائية ». والحقيقة أن تمرّسهم بالحياة في تلك الغابة امر عجيب.

الغابة الاستوائية كفيلة باعطاء فكرة عامّة عن طريقة حياة هؤلاء الرجال الصغار. فالعواصف قليلة الهبوب، والزوابع قصيرة، ولكن المطر لا يعرف فصولا ، فالسنة كلها أمطار ؛ غير أن الرطوبة تبلغ درجة خانقة. ففي الصباح يرتفع ضباب كثيف نتيجةً لغُصة الارض بالمياة الكثيرة. امّا الادغال فتبقى غارقة في بقايا المطر فلا يخرجون من ملاجئهم، لانهم يتجنّبون [illegible]راق المبتلّة التي تنتفض عليهم عند مرورهم ؛ لذا فهم [illegible]ظرون ان تطلع الشمس فتنفذ باشعتها إلى تلك القطرات العالقة [illegible]راق ؛ وعندئذ يخرجون ساعين إلى قوتهم اليوميّ. ومكان [illegible]ن عبارة عن دائرة من الاكواخ النصف دائرية، المنطوية على

جذوع الاشجار الجبّارة . وهذه الأكواخ من صنع النساء، اللواتي ركـّزنها على غصون مقوّسة، تغطـّيها طبقات من الأوراق العريضة ؛ وليس لهذه الأكواخ من منفذ غير الباب . امـّا من كان منهم قد توفـّق إلى مغارة او صخرةٍ كبيرة نتأ من أعلاها شبه سقف، فهذا صاحب كوخ ممتاز، قدّمته له فرصة سعيدة .

الرجال صيـّادون يعصف في نفوسهم حبّ الصيد . وقوس أحدهم عبارة عن جذعٍ مقشور ومحنيّ على النار ؛ وتره من خيزران مشطور، ومشدود إلى الطرفين بحلقة في كلّ منهما، والسهم يحمل ، في مؤخره، ورقةً مربوطة اليه بدلاً من الريشة . وقبل ان يتمكـّنوا من الحصول على شوكة من حديد، كان الخشب المقشور والمقوّى على النار ينوب عنه . وكل السـّهام كانت تسمـّم بعصارة نباتيـّة .

ومراسيم الصيد الجماعي تدعو إلى مشاركة النساء، اللواتي يجب ان يرقصن كلّ الليل السابق رحلة صيد الفيل . ولرجوع الصيادين منتصرين مراسم ايضاً تتميـّز باحتفال جميل، لا يضع حدّ الانتهاء منه غير نفاذ جـُهد الراقصين والمغنـّين، وهم في أقصى حالات التمادي والاسترسال في التعبير عن فرحتهم . والبيغميـّون يحتقرون الافخاخ ، فيصطادون الفيل رشقاً بالسـّهام ، أو بايّ قذف آخر باليد، محاولين اصابة اعصاب القائمتين الخلفيـّتين ؛ فيقعَ الحيوان ارضاً، فيثبون اليه ويقطعون خرطومه، وسط شآبيب من

دمه النازف، وهو يعاني انتفاضات النزع الأخير . وكثيراً ما يخاطر الصيادون فيقتربون من الطريدة الضخمة بمشكاتهم الحادة، ويحاولون غرزها في البطن، فاذا بالحيوان القتيل يُسعفهم بانتفاضة ألم جديد تعجّل بالقضاء عليه . والصيد الجماعي يمارس بالشباك، فتكون الواحدة منها : علوّها متر وعرضها عشرة امتار تقريباً ؛ فيمدّونها في شكل نصف دائرة بين شجيرات، ثم يأخذون في تنفير الطرائد بانواع من الصراخ وبهزّ الأغصان الصغيرة ؛ فتنطلق البقيرات الوحشية لتقع حيّة في الشرك ، فيأخذون منها البالغة ويقتلونها .

والنساء يذهبن كلّ صباح في الغابة، يدفعن أمامهنّ أولادهن، بينما الرضيع منهم يلتصق بوركْ أمّه . ويسرن مجهّزات بأوتاد مسنونة الرأس ينبشن بها التراب ليكشفن الثمار التي تنمو تحت سطح التربة، وبسكاكين يحملنها في أوساطهنّ يقطعن بها السويقات ويقشرن عن اللباب . ويجمعن ايضاً بزّاقاً، وسلاطعين وقريدس، كما يجمعون حيّات، ودويبّات، وجنادب . والغلّة تتجمّع في شبه سلّة مرتكزة على الظهر، مشدودة بسريدة تعصب الجبين . والنساء يجمعن ايضاً العسل من الارض، حيث يحفرن إلى مستوى القفير البرّي ؛ فيأخذن منه دون إهاجة النحل، بينما الرجال يجمعون العسل من الخلايا القائمة على الاشجار، معتمدين تدويخ النحل بالدخان .

وكلّما استنفذ البيغميّون الطرائد، في المنطقة التي تحيط بمحلّتهم، يهجرونها إلى سواها في البعيد، ولكن دون أن يخرجوا من تلك الأراضي الرحيبة، التي يتّخذون الحدود فيها : نهراً، أو ساقية، أو مجرى خطّه السيل. والطريدة التي تُقتل تكون ملكا لمالك الارض التي سقطت عليها، والصيّاد الغريب الذي كان يريد امتلاكها يُطرد. والبيغميّون كالبوشيمان يعرفون الملكيّة الخاصّة، وهي تتناول غلّة الجهد الفرديّ والاشياء المستخدمة في الاستعمال الشخصي. وهذه المستخدمات التافهة تصنع غالبا من الخشب، والألياف، أو الأوراق، ولكنها حسنة الاستعمال، وسهلة التجديد، ولا تشكّل عبئاً على الرحّل في تنقّلاتهم الدائمة : فالعصا التي يحفرون بها يلتقطونها عن الأرض، وورقة عريضة تُستخدم غلافاً للحم الذي يشوونه تحت حجارة ساخنة، وورقة أخرى، تُلفّ بشكل مخروطي، تُنقل عليها الزيزيّات [1]، والديدان ؛ والفراش يُصنع من ورق، او يكون عبارةً عن وجار [2] ممهّد. وعندما يحين موعد الذهاب إلى الصيد، يحمل الرجل سلاحه، وينادي كلبه، حيوانه الداجن الوحيد ؛ كما أنّ المرأة تحمل سلّتها القصبيّة ؛ ثم يمضون تباعاً.

---

(١) الزيزيات ، او النصف مجنحة ، حشرات تعيش جماعات، وتكثر في الاقاليم الحارة (المترجم) .

(٢) الوجار مأوى الحيوان البري .

وكل الأواني حديديّة، ومثلها الصحاف، وهذه وتلك حصيلة مقايضة بطرائد. واذا لم يكن للبيغميّ قطعة حديد يقتدح النّار بها، عمد إلى وسيلة، هي أقدم ما عرف الانسان للحصول على نار؛ فيتربّع الرجل على الارض، آخذاً بين رجليه قضيباً من خشب ليّن تتخلّله ثقوب؛ ثم يفرك بسرعة، بين راحتيه، خشبةً صلبة في شكل مثقب، عموديّ الوضع في أحد ثقوب الخشبة الليّنة، فيتطاير نثار الخشب شرارات تقع على قطعة نسيج جافّ، أو على نُتفةٍ من قطن فتنشأ النّار؛ ويُنفخ فيها فيظهر اللهب.

لا حلي عند البيغميين، ولا ختانة. أمّا اللباس فهو للمرأة عبارة عن ضمّتين من ورق مشدودتين إلى الخصر؛ احداهما تتدلّى من الامام والأُخرى من الخلف؛ وهو للرجل جلد حيوان أو كتلة من قشر مرضوض، مشدود إلى الجسم ويمرّ طرفٌ منه ما بين الجنبين.

والتنظيم الاجتماعي لم يعرف على وجه ثابت. ففي داخل المحلّة، رجال جيران يصطادون مترافقين، ويعتبرون انفسهم أقرباء، ويعترفون بسلطة الاكبر سنّاً. ومراقب هذه المحلّة يحسب أنّ فيها عائلة كثيرة الأفراد، او مبتدأ صفّ من البشر. ولكنّ الإقامة فيها موقّتة، وساكنوها لا يلبثون ان يتفرّقوا عند اوّل داعٍ للتفرقة. فهنا، إذن ليس من جماعة مستقرّة غير

الأُسرة المُلزمة بالتعايش الوثيق : الزوج، والزوجة، والاولاد الصغار .

أمّا الصيغة الأقدم اعتماداً في الزواج فيبدو أنها المبادلة، القائمة على « رأس برأس »، يعني ان طالب الزواج يعطي اخته، او إحدى قريباته، لجماعة الفتاة المطلوبة للزواج ؛ ولا تتحمّل هذه الأخيرة أيّ إفقار . واذا حدث ان كانت احدى هاتين الزوجتين المتبادلتين عاقراً، فيحقّ لزوجها أن يطالب بزوجة ثانية ؛ وهذا تعبير ممكن، وغير مستمرّ، عمّا يُسمّى تعدّد الزوجات . وكثيراً ما يحدث ان يأخذ رجل أسود امرأة بيغميّة مقدّماً تعويضاً عنها إلى عائلتها، وهذا التدبير الذي يُعتبر شراءً تتزايد وقائعه يوماً بعد يوم . والانتساب إلى الأم الغريبة إلزاميّ عند النظرة إلى الجماعة، وليس إلى العشيرة . إذ لا اتّحاد بين العشائر، ولا أثر للسلطة القبليّة .

من الصعب ان نستخلص صفات مميّزة لدين البيغميّين ؛ لأنّهم، في كل مكان من ارضهم، قد اقتطفوا عناصر ميثولوجية او اقتبسوا طقوساً دينيّةً عن جيرانهم . ويقول المرسلون من مدرسة الاب شميت « Schmidt » بوجود نوع من التوحيد القديم . أفلا نرى كيف أنّ البامبوتيّين يقدّمون بواكير صيدهم وثمارهم إلى الله، الذي يدعونه الأب أو الجدّ، مرفقين التقدمة بصيغة طقس ديني ؟ وفوق انّ هذا الاله هو سيّد الطرائد،

هذا الاله هو ايضاً صاحب السماء، وآمر العواصف. ولكننا لا نعلم مقدار الأهميّة التي يعلّقها البيغميّون على هذا الاله، ولا ما موقفهم بالنسبة إلى بقيّة الأرواح.

وكذلك العادات السحريّة فانها غير واضحة الوجوه، كما هي حالها عند السود: كأن نشعل ناراً لنطرد العواصف، مُلقين فيها اوراقاً ينبعث منها دخان كثيف، وكأن نثبت، على القوس، قطعة من خشب شحذت قرنيها عليها بقرةٌ وحشيّة، وكأن نضع، على الكوخ، بعض حطبٍ مسّته الصاعقة، لكي نبعد الصاعقة نفسها عن هذا الكوخ. وهكذا لا نرى ايّ واصل، بين هذه المتفرّقات، يجمعها إلى نموذج معيّن تلتفّ حوله أفكار متجانسة.

وأمّا الطقس الذي كانوا يمارسونه عند دفن الموتى، فانّه عامّ شامل: تقديم اغذية، ودعاء يطلبون فيه معونة الأجداد، قبل الذهاب إلى الصيد.

وفي كثير من جماعات الفلاحين، ومربّي الماشية السود، نرى أنّ وجود طقوس الصيد عندهم، والرجوع إلى حياة قاسية في الغابة، حيث يدخلونها عراة، ليستمدّوا سحرها، وحيث الفتيان ينامون على الارض عراة، ايضاً، وغالباً ما يأكلون صيدهم نيئاً؛ نرى كلّ هذا كدليل جامع وشاهد قاطع، نأخذ بهما فنتبيّن طريقة عيشهم ضائعة المقاييس قاسية الواقع.

٤ – افريقيا الشرقية

اصناف بشرية متمايزة، ولغات مختلفة تحيا على أرض الشرق الافريقي، من النيل الأعلى إلى الزامبيز، ولكنهم، على الرغم من هذا، يؤلّفون عهداً كبيراً واحداً من الحضارة، التي تُعتبر منطقة البحيرات قلبها الجغرافيّ. وهي، من حيث الاعتبار الجغرافي، ذات مناخ استوائي في الداخل، دائم الحرارة والرطوبة، أمّا الباقي فهو خاضع لتأثير الرياح الموسميّة، او الدائمة الوافدة عليه من الاوقيانوس الهندي. وكلّ منطقة فرعيّة تنال قسطها من الأمطار تبعاً لمستواها بالنسبة إلى البحر، ولموقعهـــا التوجيهي واستواء او تعرّج سطح ارضها، ولكنها كلها تعرف فصلاً جافّاً او فصلين جافّين: في سهوب، ومروج، وحظائر، وهذه هي مملكة الحيوانات آكلة الاعشاب تعيش فيها قطعانا؛ وهذه ايضاً بلاد الاختيار لمحبّي تربية المواشي، يُشبعون فيها انفسهم من مشاهد الخصب والنموّ.

وقد اصبح حبّ تربية المواشي عقدةً نفسية تسيطر على كل سكان الشرق الافريقي: كلّهم يترفّعون عن الزراعة، حتّى ولو كانت نساؤهم تتعاطاها عملاً، ويعتمدون الصيد، غالباً، هوايةً يمارسونها. محترفو الحدادة هم احيانا مكرّمون، وغالباً محتقَرون،

ودائماً يتأبّاهم الخلطاء. والعناية بالأبقار بمهمّة الرجال وحدهم. ومالك القطيع يعرف كل واحدٍ وواحدةٍ فيه، وكثيراً ما يقضي ساعات في تسوية حدبة حيوان منه، او أن يُدير له قرنيه، او لينظّم له عقداً، او ليحتفي بميزاته في أغنية مديح. ولم تكف سبعٌ وعشرون عبارة احد اصحاب القطعان، ليعدّد كلّ المواقع الممكنة لبُقعٍ على ثوب بهيمة. ومن مدائحهم المحبّبة قولُ احدهم «بَكيرَتي» أو «ثوري» في مناداة البقرة الفتيّة، او الثور القوي. وقد يحدث ان تموت بهيمةٌ مفضّلة، فيأسى عليها صاحبها كثيراً؛ وقد ذُكر انّ بعضهم انتحر لا لأمرٍ غير حزنه على غالٍ في قطيعه.

وسكان هذا القسم الشرقي من افريقيا يشربون الحليب خالصاً او مشوباً ببول القطعان؛ واحياناً يشربون الدم النازف من جرح أُحدث في عنق حيوان بإراشة سهمٍ عن مسافة قصيرة. ولكنّهم لا يقتلون البَهْم إلاّ في حالة تقديمِ أضاحٍ؛ لأنّ مجرّد التفكير بقتل حيوان لأكل لحمه امرٌ مرفوض كايّ ارتكاب خطير. وكلّ غذاء نباتي يحسب، في الغالب، شيئاً دَنساً، ويجب ان يتقدّم اكلَهُ صومٌ وأن يُتبع بآخر؛ لأنّ اختلاط الحبوب بالحليب وخيم العاقبة اذا تمّ في بطون الرجال، وبالتالي في بطون البهائم. والرجال يحلبون ما عندهم من ضرع في أوعية من خشب، أو في تجاويف من اليقطين، مستبعدين، بصورة قاطعة، الوعاءَ المعدنيّ.

وتُغسَل أجاجين الحليب، كلّ يوم، ببول البقر وتدخّن فوق نار من الروث.

أمّا السّمن فتعدّه النساء، ولا يستعمل إلا كمادّةٍ للتطرية. وأمّا اللباس فكما يلي: اكثر الرجال يفضّلون العريَ؛ والنساء يلبسن تنانير من جلد، مطرّزة بزمرّدات، ويُضفن اليها، استزادةً للزينة، أساور للزنود ودمالج للمعاصم وأقراطاً للآذان، مصنوعةً من مزيج معدني يغلب عليه النحاس — Laiton —، وكذلك يغلب عليهن التحلّي بعقود تتدلّى إلى الصدور. والصبايا يظهرن عاريات. ومن حيث المأوى، فمساكنهم ذات جدران من الجصّ وسقوف من الهشيم؛ وتغلب على شكلها الاستدارة.

وعند النيليّين، في الشمال، التنظيم الاجتماعي يتغيّر، من قبيلة إلى أخرى. فالدّنكيون يجتمعون في عشائر ذات انتساب إلى الأب، عددهم اكثر من نصف مليون؛ والشّيلوكيّون، وعددهم أقلّ بمئة الف، يؤلفون أمّةً يحكمها ملك، وتجمعهم ستّ ولايات. ولكنّ الرئيس في عشيرة دنكيّة، والسيّد الشيلوكي كلاهما «ملك مؤلّه»، له صفة الكاهن، وسلطة المشترع، وكلمة القاضي الأعلى؛ وكلاهما، كما يزعمون، يأمر عناصر الطبيعة، وله سلطة مراقبة الأمطار؛ إذن هما قادران على اجتناب

الجفاف، الذي اذا طال يُتلف المراعي . وفي ملك الشيلوكيّين يتقمّص روح البطل المؤسّس نيبيْكان، الذي اختفى في عاصفة والحلقة الوسطيّة من الاحتفال بسيامته تقوم بأن يوضع، للحظة، الرسمُ المسكوك، الممثّل نيبيْكان على عرش كان له وعليّه يجلسون، الآن، الملك الجديد. والملك الشيلوكيّ لا يمكن أن ان يكون مريضاً ؛ لأنه يمثّل صحّة البلاد المستمدّة من نيبيْكان ؛ ولئلا تصبح هذه الصحة العامّة في خطر يخنقونه، عند اوّل دلالة من دلائل الضعف تبدو عليه .

رجال المجتمعات القائمة على طول ضفاف النيل او البحيرات الكبيرة (ناندي، مازي، سوك، باري، نوير...) يعرفون طريقة خاصّة للتصنيف حسب السنّ، وفي هذه الطريقة يُجعل الصبيان المقبولون لاستلام اسرار الكهانة او المرشّحون لها، من ذوي السنّ الواحدة، في صفّ واحد، ويزعمون انّ اسمَ كلّ منهم يحدّد له ما تبقّى من عمره . وتتابع الصفوف دائرةً في نظام لا يتغيّر، واسم الصف الذي يكون على حافة الانتهاء يُعوّض عليه بصف الأحداث الناشئين . والمؤسّسة تلعب دوراً في التربية، وفي التنظيم القبليّ، حيث الضيافة، والتعاون يعتبران جزءاً من القانون في داخل الصفّ، الذي تتعارض اعضاؤه في نوع من الخصومة الرسميّة، بين الأبكار وبين الأبناء الثانويين. أمّا في المساهمات السياسيّة، حيث تكون السلطة مقرّرة مسبقاً

لصفّ يعيّنه رئيس القبيلة من أتباعه، فالنّظام يجيز اعتماد قوّة مسلّحة. وهذا التنظيم النصف عسكري، الذي وضعه رعاة ماشية، تركوا فيه دوراً اساسيّاً للفتيان، يوضح، ولو جزئيّاً، لماذا لم يستطع هؤلاء الشعوب أن يخلقوا دولة عديلة لتلك الممالك الكبيرة المجاورة، مثل مملكة أوروندي[1].

حضارة واحدة تُعتمد، من أوغندا حتّى جنوب الزامبيز. فإنك اينما سرت تقع على غزاة من أصلٍ حاميّ حلّوا مكان السكان الأقدمين السود، الذين كانوا زارعين وحرفيين، ولكنّ التباين الاجتماعي بقي مسيطراً. وهكذا نشأت طبقة المزارعين من الفلاحين، الذين لا يُسمح لهم أن يمتلكوا بقراً، بل ماعزاً، وعليهم ان يموّنوا أسيادهم من الذّرة، وبيرة الذرة، والموز، فهؤلاء مربّو ماشية لا يفلحون ولا يزرعون. وليست هناك اتفاقات لاستعمال الأرض، فالفلاح المتمركز، على ارض احد الاسياد، يقدّم لهذا المالك جزءاً من الغلّة مقابل حقّه في استعمال الارض؛ ولكنّه حرّ في أن يترك ساعة يرى ذلك مناسباً له. وطرق الزراعة، في هذه المنطقة، هي كالكثير من الاساليب الزراعية المعروفة في سائر البلاد الافريقيّة: الرجال

---

(١) Urundi ou Burundi اسمان لمملكة واحدة، في افريقيا الوسطى، مساحتها ٢٨٠٠٠ كلم٢ وعدد سكانها ٣٤٠٦٠٠٠. وهي الجزء الجنوبي من مملكة Ruanda-Urundi، قديماً. مؤلفة من هضاب زراعية (المترجم).

يمهدون التّربة، والنّساء تُعشّب الأرض وتزرعها، ولكنّ الحصاد مشترك . امّا الحبوب فتُحفظ في سلال ضخمة تحزمها جدائل نباتيّة أو سرائد من معدن، او في ابنية صغيرة ترتكز على أعمدة. وأمّا المساكن فتقوم في وسط الاراضي الزراعيّة .

في كل هذه المنطقة تُعتبر الماشية والأبقار ملكاً للأسياد، والماعز ملكاً للمزارعين، ومن هذه الممتلكات يقدّم الزوج مهراً لأهل الزوجة لكي يصبح القران قانونياً، والاولاد شرعيين . وهكذا يصبح تعدّد الزوجات شارة غنى ، فعددهنّ يحدّده عدد الحيوانات التي يستطيع الزوج تقديمه . وعلى العكس، فان قلّة الموارد، في حالات قصوى، تجبر أخوين على اقتسام مضاجعة زوجة واحدة . ولذا فانّ ولادة الابنة تستقبل بصورة أفضل من استقبال الابن ؛ لأنّ الابنة، بالنسبة إلى الأب، هي زيادة مستقبليّة على قطعانه . ورئيس القبيلة لا يراقب ما يجري على أرضه زراعياً، ولكنّه شديد التدقيق في إحصاء قطعانه لمعرفة الزيادة او النقصان . ومن هنا يتراءى لنا أن الحدود لم تنشأ، وانّ العمل على حمايتها لم يكن، لولا الحرص على امتلاك افضل المراعي، ولولا الحاجة إلى معرفة ملكيّة الارض لتكون بدورها دليلاً على ملكيّة القطيع . وممّا هو جدير بالذكر انّ أمراء بانيِيُورا ، وهم في الثامنة او التاسعة من العمر، يُسلّمون إلى

خبراء في تربية الأبقار ليعلّموهم كلّ ما يتعلّق بتربية المواشي وطُرق العناية بها .

وملك هذه البلاد سلطان مطلق، يليه في السلطة اقرباؤه الأبحّاء، فمنهم الوزراء وحكّام الولايات . ولفقدان نظام وراثة الحُكم، بشكلٍ مُركّز، تستبدّ الفوضى بالبلاد حتّى يلي الملك الجديد . أمّا أسباب الفوضى فهكذا غالباً : عند موت الملك ينشأ الخلاف ، ثمّ القتال بين ابنائه، فمن يُغلب منهم يُقتل او يحجر عليه في مكانٍ ما . وأمّا الملكة، التي هي اخت الملك بالدم، اي اخته لأبيه، فانّها تستمرّ موضع احترام عميق . وكذلك الملكة الأم، التي تبقى، دائماً إلى جانب الملكة، فانّها ايضاً تحاط باحترام عظيم . ولكلّ منهما مقرّ خاص وصلاحيّات هامّة تمارسها، ولا سيّما في الشؤون الإداريّة . والملك، عادة، يحترمونه كإله، ويحيطونه بتقاليد تمنع عنه الاتصال بالرجال البسطاء لأن في ذلك خطراً عليه .

في نطاق المقام الملكي تبقى نار روث البقر مشتعلة دون انقطاع ، فهي نار حياة الملك، والمحارب الذي يمسح برمادها يستعيد قواه . وعند وفاة الملك تُطفأ النار القديمة؛ لتُوزّع ، على مرؤوسيه من الحكام، شهبٌ من نار جديدة أُشعلت بالاحتكاك. وقبول النار الجديدة اعترافٌ بسيادة مرسلها . وحال الملك هنا كحال زميله في مكان آخر، في الأبعاد الشماليّة، يُقتل عندما

تضعف قواه . ثم يغسلون جسده بالحليب ويلفّونه في جلد حيوان مضحّى، بينما يُسمع عجيج بقرات أمّات أبعدت عن عجولها، وهو عجيج يعبّر عن لهفة الوداع وحرقته . ثم تُذبح ثيران كبيرة كأضاح لإنماء القطيع الملكي، في العالم الآخر . وقديماً كانوا يدفنون مع الملك عدداً من نسائه وخدّامه، وهم أحياء، بعد أن يكسروا لهم اليدين والرجلين . والملك يُدفن، بعد أن يُسجّى على خشب مقدس، ليخرج الكهّان الذين غيّبوه، ومعهم شبل: ذلك لأن الأسد حيوان العشيرة الملكيّة، والملك يستحيل إلى اسد بعد موته .

في ظلّ الله الحاضر في كلّ مكان، اله السماء الخالق، يقوم مدفن للابطال يجمع، إلى جانب الأجداد من الملوك المؤلّهين، ـ الذين نُذرت لهم بقرات يُحمل حليبها إلى هياكل قبورهم ـ، أشرافاً ترتسم ملامحهم في ملحمة تخلّد ذكرهم ؛ كما يجمع ايضاً آلهة فلاّحين، وآلهة تحت ارضيين، وآلهة ارضيين .

وإلى اهتمامهم الوحيد الخاص بالمواشي تخضع نهائيّاً كل حياتهم الماديّة، والاقتصاديّة والعاطفيّة، والدينيّة . فالولادة، والزواج، والمراسيم الايحائيّة، وخلافة الحكم، كلّها تترجم بعدد من الحيوانات التي يُستبدل اصحابها، في احدى هذه المناسبات . والحليب، والدم، والعشب المغذي القطعان، كل هذه تُقدّم قيمةً رمزيّة، في كلّ مكان ؛ كما أنّ الفتيان لا يحلمون

الاّ بسلب الماشية، والاستيلاء عليها، وهي على مراعٍ جديدة . والماشية تتدخّل حتّى في مراسم القضاء : فالمتّهم المازيّ يشرب من دم ثور عند ما يلفظ الكلمات التالية : « إن كنتُ قد قلت كذباً، فليخنقني هذا الدم » . وموت رجل هرمٍ او شخصٍ بارز يتميّز الاحتفال به في تضحية ثور ؛ ليُطلى جثمان الميتّ بشحمه ويكفّن بجلده، ويُجعل اللحم طعام الوداع الأخير . امّا ابرز شخصيّة اجتماعية عندهم فهي الملك او الساحر الذي يصنع المطر . ولأنّه يستوحي الغيب فهو مفسّر الرؤى والأحلام، وبفضل نصائحه تلد النساء وإناث الماشية، وبعد إيحائه بالفأل تجنّد الحملات الحربيّة وتمضي إلى غايتها .

وهناك، على طول الساحل الشرقي الافريقي، ما يزال مجرى المؤثّرات الآسيويّة فاعلاً . وسواء أكان ذلك المجرى آتياً من البلاد العربيّة ، أو بلاد فارس، او الهند، او اندونيسيا، او سواها، فانّ وجوده ملموس ولا سيّما عند سكان السواحل . ولكن عناصر حضاريّة آسيوية أخرى نجدها منغرسة، في الداخل المتقدّم من القارّة، في مجتمعات الفلاحين المتبقّين افريقيين خُلّصاً .

ومن حيث وجهة النظر إلى الانسان تتكيّف حياته بالعوامل الدخيلة، فانّ سكّان كلّ الجزر والساحل، وبعض الرؤساء في الداخل وعائلاتهم ، ملقّحون بدم آسيوي . وقد زعم

السّواحليّون (من سكان الشواطىء) انهم سليلو وافدين من بلاد فارس، في القرن الثامن للميلاد، تزوّجوا نساء افريقيّات؛ وكان زعمهم هذا دفاعاً عن نفوسهم عندما صُنّفوا درجةً ثانية في الافريقيين الجنوبيين. ولغتهم تشتمل على كثير من الكلمات المستعارة من العربيّة، وهي لغة الشرق الافريقي كلّه؛ في كينيا، والكونغو الشرقي؛ وإلى الجنوب حتّى الموزامبيك.

ويبدو أن الاسلام دخلها ابتداءاً من الخليج الفارسي، في القرن الثامن. وفي القرن التاسع جاء رجالٌ من شيراز، من اعمال فارس، فأسّسوا مرافىء: كيلوى وومبازا. ولذلك فالتأثير الفارسي العربي يلتمع فيهم: ابتداءً من موغاديشو في الشمال حتّى سوفالا في الجنوب. والتجّار العرب جعلوا من تجارة ذهب مملكة مونوموتابا، يتسلّلون به إلى سوفالا، مورداً لرزقهم؛ وكذلك كانت تجارة الرقيق، بضاعتها صيد العبيد على أراضٍ رحيبة الآفاق. وكانت قوافل هؤلاء البائسين تتسلسل طويلة نحو الشاطىء، والباقون فيها أحياء كانوا ينقلون إلى مداغسقر، ونحو جنوب آسيا، وحتّى أندونيسيا. وكان لهذه القوافل ممرّان طويلان يخترقان السهوب، احدهما يبتدىء بدار السلام لينتهي عند بحيرة تانْغَنيكا، والآخر من مومْباز إلى بحيرة فيكتوريا؛ وعليهما مُدّت خطوط القطار الحديدي.

وقد ترك العرب على هذا الساحل الشرقي خرائب مبنيّة من

الحجارة المقصوبة، الملتحمة بالكلس، كما تركوا أنصاب مدافن ما تزال ماثلةً للعيان حتّى ايّامنا الحاضرة. وقد نقلوا إلى هذه المنطقة تقنيّات نجارة، وزراعة البردقان والليمون الحامض، والقطن، وقصب السكر. امّا صناعة الحدادة فقد كانت عملاً متأخّر الزمن عمّا تقدم ذكره، من منقولات العرب إلى الساحل الافريقي. وهاكم الادريسي المؤرّخ يذكر انّ مرسلات معدنيّة افريقيّة صُدّرت نحو الهند ونحو جاوه. وفي القرن الثامن عشر اسس عرب مَسقَط زراعة كبش القرنفل في زنجبار، ومع حَلْيِهم الثقيل المصنوع من الفضّة عرفت هذه البلاد صياغة الشبّاك. الروزنامة في اعيادها، والاحتفالات الخارجيّة في مراسيمها، عربيّة؛ وكذلك لباس رجال المدن المؤلّف: من قميص أبيض ومن عرَقيّة، وعباءَة خارجيّة قاتمة اللون؛ امّا النساء فيلفتن النظر بقباقيبهنّ المرتفعة الأعقاب.

وهناك الآتون من بلاد بعيدة، من ماليزيا، فقد حملوا، إلى هذا الساحل، النّخيل الاستوائي وكلّ الأدوات التي تُصنع من خشبه؛ كالملعقة، والمدقّة وكفّتي الميزان.

والبورتغاليّون ظهروا، في القرن السادس، وهم يفتّشون عن طريق إلى الهند. وعلى أيديهم عرف السود نباتات اميركيّة؛

مثل الذرة، والبطاطا، والمَنيهوك[1]. ولكنّ البيض، ايضاً، انصرفوا بكلّيتهم إلى المتاجرة بالعبيد؛ فكانوا ينقلونهم إلى الأراضي المزروعة من العالم الجديد، حيث يجد الأُصلاء من الشرق الافريقي عبيداً من أصلٍ كونغالي او شرقيّ افريقي. وإذ لم يكن لهؤلاء، المنتزعين من أوطانهم، ما يورثونه من مال او حطام، فانهم عوّضوا على المتحدّرين منهم بذهنيّةٍ إيقاعيّة فائقة الوصف، وببعض تقاليد، لم تسلم من شوائبَ خالطتها بالتماسّ وبمستورَدات لاحقة.

وفي خارج مدُن الساحل ظهر، من جديد، الافريقيّ ذو المعنوية الاصيلة. فالمرأة هي عامل الحقل تنقب ارضه بالمِعول المجرفة، كما هي القاعدة في افريقيا. والطقس الدينيُ الذي كان يمارسه الجدود الاقدمون عادا الى الممارسة، إلى جانب طقوس أخرى كالتعوّذ من السُّكنى[2] والصلاة لشفاء الممسوسين[3]، وهي شائعة حتّى مداغسقر، حيث النساء يلعبن، غالباً، الدور الاساسي.

وإلى الجنوب من خطّ يبتدىء عند مصب النيجر، ويمضي

---

(١) «manioc» من فصائل نباتية تزرع في البلدان الحارة. تؤكل جذورها، وتطحن، ويعرف طحينها تحت اسم «تابيوكا». (المترجم).

(٢) «possession» يعني تملك الشيطان الانسان، فيقولون: انسان مسكون أي فيه شيطان. (المترجم)

(٣) الممسوس من اصابه جنون او بعض جنون.

في موازاة تقريبيّة لخط الاستواء، نجد ان هذا الجزء من افريقيا يسكنه الميلانو – افريقيون، المنتمون إلى الاصناف الثانويّة من الكونغوليين ومن الجنوب افريقيين. يتكلمون لغات البانتو، يعني اللغات التي تدلّ فيها السابقة « ba » على الجمع. فكلمة ntu تعني رجلا، انساناً؛ bantu تعني اكثر من رجل.

واستناداً إلى العوامل الحضارية والظروف الجغرافية يمكننا ان نقسم شعب البانتو: إلى شرقيين حاميين في الغالب، وإلى بانتو جنوبيين: هؤلاء يقطنون في جنوب الزامبيز والقونين، واولئك تصل أبعادهم إلى الشمال من بحيرة فيكتوريا. أمّا سكّان الغرب منهم، فينتمون إلى الكونغو، ولو نسبةً.

٥ – افريقيا الجنوبية

ان افريقيا الكائنة إلى الجنوب من الزامبيز تؤلّف هضبة رحيبة، ينحدر سطحها انحداراً خفيفاً من الشرق إلى الغرب، أمّا ارتفاعها فيتراوح بين ١٢٠٠ م – ١٠٠٠. وهذه الهضبة تخترقها ثلاثة أودية لثلاثة أنهر كبيرة: الزامبيز، والليمپوپو، والأورانج. وفي المقابل لهذه الأودية ترتفع ثلاث مناطق يبلغ علوّها ١٢٠٠ مترٍ؛ وهـذه المناطق هي: جنوب روديسيا، بين الزامبيز

واللّيمپوپو، والمساحة التي تمتدّ في الجنوب الغربي من اللّيمبوبو، والأراضي العالية في داخل ولفي باي.

الزامبيز يخترق، من الغرب إلى الشرق، أرضاً تؤلّف جزءاً كبيراً من القارّة؛ والساحل الغربي، على الرغم من انه على الارتفاع نفسه، فانه لا تجري فيه غير سواقٍ قليلة، أهمها القُونين. واذا مضينا إلى الجنوب نجد نهر الأوّرانج يجري في وضعٍ معكوس، فانه ينبع من هضاب بازوتو، ضارباً نحو الغرب. ولكن هذا النهر ليس نظامي الدّفق المائي إذ انّك تلقاه احياناً نهراً فائضاً، وأحياناً أخرى مجرىً غائض الماء؛ بينما، على الارتفاع نفسه، نجد في الساحل الشرقي ارضاً، ترويها ريّاً كافياً، أنهارٌ لا تلفت النظر، لا بطولها ولا بكمّ مياهها.

وميزان هبوب الرياح ليس مستقيماً؛ فهي تهب نظاميّاً من الجنوب الشرقي كلّ السنة، محدثةً امطاراً في الصيف، يعني من اول كانون الاول إلى نهاية شباط. وفيما هي تجتاز القارّة تزداد رطوبة تلازمها؛ وهكذا أصبح القسم الداخلي من الساحل الغربي قليل الأمطار والانهار قلّة مضرّة. ففي الشتاء، من أول حزيران إلى آخر آب، تدور الرياح نحو الشمال، تاركة الأمطار لا تتجاوز حدود الهضبة من الشرق. أمّا في الشرق فتوزيع المياه، وهبوب الرياح يوفّران للمنطقة ريّاً منظماً؛ فاذا هي مغطّاة بالأحراج والمراعي الكبيرة. وكلما تقدّمت نحو الغرب

وجدت التبخّر يحدث بشكل أكثف، فيمسي السّهب أكثر جدباً ؛ إلى أن تبلغ الصحراء.

وأما شبكة المواصلات المائيّة، فانها لم تلعب دوراً بارزاً في تاريخ هذه البلاد : لأنّ الانهار ليست صالحة للملاحة، إلاّ لمسافات قصيرة؛ فهي إمّا أن تنحدرعلى الهضبة في اندفاع قويّ، وإمّا انها تفتقر إلى الماء في قسم من السنة. وفئة صيادي الأسماك مفقودة، وجماعات التجار لا تجري زوارقها الشراعيّة على طول مياه الشاطىء. وعلى الاجمال، ان خصب هذه البلاد يتوقف وجوده، هنا او هناك، على سقوط الأمطار، وعلى مياه الأنهار.

إن ناس بلاد البانتو الجنوبيّة، او سود الجنوب الافريقي، الذين يسكنون هذه المنطقة الرحيبة، يبلغ عددهم ثمانية ملايين. ويقسمون سياسيّاً إلى عدد كبير من القبائل، لكلّ منها اسمها وارضها، ورئيسها، الذي يُعتبر مقرّه مركز حياة القبيلة. والقوة العدديّة لكل قبيلة تتغير بفارق بعض آلاف من الاعضاء حينا ليبلغ، حيناً آخر، نصف مليون تقريباً. والقبيلة، التي بلغت هذا الفارق الكبير بعددها الكثير، هي أمّة البازوتو ؛ وقد كان ذلك في مدّة لم تبلغ القرن بعد وجودها. وقد ضربت هذا الرقم القياسي في النموّ بفضل رئيسها موشيك « Mochech »، الذي ألّف ما بين عدد كبير من القبائل، وجعلها قبيلة تضاهي امّةً. وسكّان ناتال وزولولاند، المتفرّقون، سابقاً، في حفنات قبائل،

اصبحوا يُعرفون، بعد ان جُمعوا، باسم جماعة زولو. وهذا الاسم كان يُطلق على حفنة قبيلة استطاعت في أوائل القرن التاسع عشر أن تمتص كل جيرانها، وذلك بقيادة شاكا. وقد عُرفت أهميّة الدور الأساسي الذي لعبته أمّة زولو في مجرى القرن الأخير. وفي الواقع، ان كلّ تاريخ الجنوب الشرقي من افريقيا يختصر، في سلسلة حروب مختلطة الاسباب رتيبة المظاهر، وفي هجرات، وإبادات، انتهت كلّها إلى تكوين الوحدات الجديدة.

كلّ الافريقيين الجنوبيين السود ذوو حضارة واحدة، ولكنّها ملوّنة، إلى درجات مختلفة، بعناصر خارجيّة يؤدّي وجودها إلى فوارق ملحوظة في نوعيّة الحياة: منها ما هو في معالم المجتمع ومنها ما هو في الطقوس الدينيّة. وهذه المناهج الحياتيّة تتمايز في ثلاث جماعات:

١) جماعة الجنوب الغربي (نغوني، تونْغا، ڤاندا)؛

٢) جماعة الوسط (سوتو، تِسوانا)؛

٣) جماعة الغرب (هيريْرو، أوڤامْبو، أوڤِمبونْدو).

وقبائل الوسط والغرب تمارس، كطقس دينيّ رسميّ، القطع، اي الفصل الديني، وهذا ما أُلغي وجوده، في الشرق، منذ قرن. فقلع الأسنان، والتطهير الكلّي، أي النبذ، يؤدّيان الغرض

نفسه، في الغرب، وعند التّونغا، في افريقيا الشرقيّة البورتغاليّة، بينما تُعتبر حزّات الجراح الجسديّة شارات شرف، في الشرق وفي الشمال. واخيراً نذكر انّ الزّولو والإكزوسا نقلوا، عن جيرانهم البوشيمان والهوتانتو، قطع أنملة تنويهاً بقيمة.

ويعيش ابناء البلاد الأصلاء في كتل من أشياء، هي اكواخهم، متوزّعة على ابعاد مختلفة؛ وتسمّى الواحدة منها «كراغول»؛ ويسكن كلّ كراغول اعضاء اسرة واحدة. ويبقى كل كراغول منفصلاً عن سواه، حتّى في الوسط، حيث يميل السكان إلى التجمّع في قرى. فكلّ من هذه المساكن مُسيّج بسياج دائريّ أو بيضاوي، أو بشكل نعلة حصان، يشكّل حظيرة للأغنام والماعز أثناء الليل. ولكنّ الاكواخ المستديرة، ذات السقف المخروطيّ، أو التي في شكل قفير، كلّها قائمة، في الداخل، على مسافات قياسيّة في ما بينها.

والألبسة كانت، في الماضي، من جلود مدبوغة او غير مدبوغة، مطرّزة غالباً بزمرّدات، ما تزال أمثالها، حتّى اليوم، توضع على الزنانير، او كعصبات على الجبهة. وهذه الزمرّدات الرخيصة الثمن جاءَت تحلّ محلّ المستديرات الصغيرة المصنوعة من قشر بيض النّعام، او من معدن، وهذا ما يزال مستعملاً عند البوشيمان

امّا الحياة الاقتصادية فتقوم على تربية المواشي الكبيرة وزراعة

الارض . ولئن كان الفارق، بين هذين النشاطين، بادياً بوضوح في الغرب، فانه هنا يمّحي ويزول : فالغذاء قائم على اساسين : الحبوب المسلوقة والحليب الرائب، أي اللبن . وخزائن الحبوب تُصنع من الجصّ، فهي إمّا اشباه سلال ضخمة او كوّارات معزولة . ولكنّ النّغونيين يخزنون الحبوب في حفر يفتحونها داخل كراغيلهم، لتكون على مقربةٍ من ماشيتهم التي تبقى أغلى ما يملكون . وحَلْبُ البقرات نشاط شريف يحتفظ به الرجال لأنفسهم . أمّا عادة استعمال البقر كمطايا، وكحيوانات لحم يؤكل، فهي عادة مجازة في كل هذه البلاد . وأمّا الأبقار الضخمة فهي عنوان الثروة، قبل كل شيء، وهي المال لتصريف الاعمال، ولعقد المعاهدات؛ لذلك فانهم لا يأكلون لحمها الاّ اذا قُتلت صيداً، او تقدمةً في مناسبة مقدّسة .

والمصبوبات المعدنيّة التي جاءت من الشرق الافريقي، لا تبدو انها هنا من زمن بعيد، ومصنوعاتها تتطلب وجود اختصاصيين وليس من اختصاص لسواها . أمّا صنع السلال والفخاريات فهو عمل النساء، بينما يختص الرجال بالمصنوعات الخشبيّة مثل حفر أوعية الحليب، ومساند الرأس، والملاعق ذات القبضات المطعّمة بأشكال حيوانات . والتماثيل الصغيرة كثيرة والاقنعة كذلك، ولكنّ ما يمثّل الانسان منها يبقى نادراً .

كل سود الجنوب الافريقي يعرفون البنوّة في خطّها الابويّ : فالابن ينتسب إلى جماعة أبيه، وينشأ بين الأحساب، والمرأة تنتقل لتعيش إلى جانب رجلها. ولكنّ أخا الأمّ، مع انّه يمثّل جانب الامومة، فانه يقوم بدور هامّ، ولا سيّما اثناء زمن الحداثة وزمن المراهقة. وجماعة السوتو يجيزون الزواج بابنة الخال؛ وبعضهم من ذوي المجتمع المنتسب إلى الابوّة يجيزونه بابنة العمّ.

والنّظام من ناحيته السياسيّة والعائليّة ينحصر، بشكل خاصّ، في النطاق الذي تلجأ اليه العائلة، وقد امتدّت فروعها : «فالقرية عائلة كبيرة تحقّقت بصورة محسوسة» هذا ما كتبه جونو عندما تحدّث عن تونغا. أمّا عند الزّولو فيبدو، بوجه عامّ، ان النظام الابويّ قد اختفى اثره تحت واقع نظام أمومة شامل : فالكراغول احتلّ مكان المحلّة المحصّنة، فربّ العائلة اصبح ضابطاً عسكريّاً بسيطاً، كلّ وظيفته أن ينقل الأوامر التي يتلقّاها.

وفي كل المجتمعات هذه، كانت صفة الرئاسة خاصّة بالكهان وكانت تنتقل من الاخ البكر إلى الأخ الذي يليه. والقبيلة كانت تشتمل على قرى كثيرة أسسها إخوان، او إبن الجدّ الأعلى، موسس القبيلة. والموسسة التي تنمو ويتّسع نطاقها هي التي يحظى رجالها بلقب ممدوح يُنادون به، وصفة يقرّها كل اعضاء القبيلة. ونداؤك رجلاً بصفة ممدوح، دون اعتماد اسمه الشخصي

هو شعار غرور . وحامل صفة ممدوح عليه ان يلتزم بتجنّب بعض المحرّمات على مثله، فلا يشرب حليباً إلاّ مع رجال يحملون لقبه المعروف عندهم بِ « isibongo » ؛ لأن مشاركة كهذه تعني اخوّة الدم، التي تقف حائلاً دون الزواج بامرأة تنتسب إلى قبيلة « الاخ » الجديد . هذا عند الزولو، أمّا عند السوتو فلقب ممدوح، معروف عندهم بِ « sebôko »، وهو أيضاً اسم لحيوان كالتمساح، والفيل، والقرد، والأسد، والذين يُنعتون به لا يجوز لهم اكل اللحم، ولا استعمال الجلد ؛ وبديهيّ، إذن، أنهم لا يقتلون ابداً، إلاّ الحيوانات المؤذية، واذا حدث ان قتلوا فمن الواجب ان يتطهّروا .

وهنا أيضاً، عبادة الأجداد قاعدة ترتكز عليها الحياة الدينيّة : كعبادة العائلة ذات الانتساب الابويّ يرعاها الكاهن الذي له وحده حقّ الشفاعة عند الموتى . فلا شرب بيرة ما لم ينل الأجداد نصيبهم منها فيبلل ثراهم ، ولا وليمة دون ان يُعطى الأجداد حصّتهم منها . وأجداد الرئيس ينبوع قوّة لكل القبيلة، فهم يسهرون عليها . وهكذا يُعطي الدين مرتكزاً يقوم عليه التمرّس بالسياسة . وإله الزّولو هو إله خالق، يسمّونه «Unkulunkulu» أي « الكلّي العظمة » . وهذا الاله هو غير إله الأجواء، الذي يستطيع بعض السّحرة ان يراقبوه، شرط ان يحافظوا على طهارتهم

الدينيّة . والاله الكلّي العظمة ليس معبوداً، لأنّه لا ممثّلين له على الأرض .

والهيريرو، سكان شمال الجنوب الغربي، هم في نظر علماء تكيّف الانسان بيئيّاً، هم سود من الجنوب الافريقيّ، لا يتميّزون بشيء عن جيرانهم، من حيث الميزات الطبيعيّة . ومن حيث اللغة، فانّ علماءَها يصنّفون لغة الهيريرو في طائفة البانتو، في الجنوب الافريقي . وعلماء الأخذ بتقلّب المناخ عاملا في تعريف السكان، يجدون انفسهم، دفعة واحدة، أمام ثقافة ماديّة، وتحضيرات اجتماعيّة تؤلّف معاً مجملاً لا يجوز المرور به دون التنويه بشأنه .

ويبلغ عدد الهيريرو التقريبي ثلاثين ألفاً، كلّهم مربّو ماشية يتحكّم الاهتمام بها بكلّ حيويتهم، عنايةً بها وانتجاعاً لمراعيها. من هنا نشأ تشابهٌ ملحوظ بين نوع حياتهم ونوع حياة مربّي الماشية في الشرق الافريقي . وما تتميّز به نساء الهيريرو عن اخواتهن نساء الشرق الافريقي، انهنّ يرقين إلى مهمّة الحلب. أما الثياب فهي من الجلد، كما هي الحال عند كثير من الرعاة ؛ والحلى المعدنية ذات الثقل المدهش، والاقراط المعدنيّة، الإجاصيّة الشكل، تزيّن الأردئة الجلديّة وتغري النيليين بإقتنائها . وأمّا الزنانير فمصنوعة من اسطوانات قُطعت من قشرة بيضة نعامة،

ثم ثُقبت ونظمت في خيط، وهي تُذكّرنا بالخوزان، أقرب وجيران الهيريرو .

غير أنّ أبرز ما يثير الفضول، في مؤسّسات الهيريرو الاجتماعيّة، وما يميّزهم بفارق كبير عن سواهم، كونهم يعترفون ببنوّة مزدوجة : فكلّ فرد منهم ينتسب بأبيه إلى عشيرة محليّة، وبأمّه إلى جماعة يوم افرادها ببعض المهامّ في نظامهم الاجتماعي .

وجماعة النسبة الابوية المعروفون بِ « oruzo » يشغلون سلسلة من الحارات، المبنيّة اكواخها في شكل دائرة . ويقوم، في شرق هذه الحارات ، كوخ زوجة رئيس القبيلة، مقابلاً المذبح ، حيث تشتغل نار الأجداد المقدّسة بحراسة زوجة الرئيس وبناته . وهذا الطقس الديني طقس إلجدّ الأعلى، وممثّله الحيّ الرئيس القائم، مشترك بين النيليين والهيريرو . ولكن الهيريرو يتحدّثون عن اله السماء والارض، وهذا الاله معبود في الغرب الافريقي كلّه . وعلى الأعمّ ، يتحدّثون عن الاشجار والاحراج المقدّسة، المعتبرة مهد الاجداد، ولكنّ هذا كلّه لا يدعو إلى تجاهل وجود جيران لهم من فلاّحي الانغولا والزامبيز .

ويسكن حوض الزامبيزكله، يعني الجنوب الانغولي والشمال الروديسي، شعب زرّاع، قديم الوجود على تلك الأرض، يلفت الانتباه بالدور الرفيع الذي تمثّله النساء، إذ بلغت بعضهن

درجة استلام السلطة السياسيّة . أمّا الوسط ، وهو عبارة عن سهب جافّ تتخلّله مساحات واسعة كثيرة الأعشاب ، صالحة لزراعة آلتها المجرفة المعول ، كما هي صالحة لتربية المواشي . ولكنّ مجتمعات الرعاة ، في بعض بلاد أنغولا وروديسيا ، تعتبر وجهاً شاذّاً يتميّز بالتأثير الأجنبي . وعلى المستطيل من الأرض الساحلية الصحراوية ، الكائنة بين الاطلسي وجبل بنغاليا ، تروح وتجيء جماعات من الرحّل تتكشّف ملامحهم عن أنهم أنسال تزاوج مختلط بالبوشيمان ؛ وهم الجسر الذي يصل بلاد الهيريرو بالجنوب الافريقي .

والقرى هي قرى زراعيّة قديمة العهد ؛ مساكنها اسطوانيّة ذات سقوف مخروطيّة الشكل ، تحيط بها سياجات من العوسج او حواجز تلتفّ على أوتاد مغروزة في الارض . ونسيج الثياب كان ، في ما مضى ، قشوراً مرضوضة ، وما يزال إلى اليوم الثوب المعتمد لبعض الاحتفالات الدينية . أمّا الصيادون ومربّو المواشي فثيابهم من الجلد ، مدبوغاً او غير مدبوغ . والانواع المعوّل عليها في الزراعة هي الذرة البيضاء ، والذرة الصفراء والمنيهوك : وصنفا الذرة عُرفا منذ أواخر القرن السادس عشر . والنساء يستعملن المعول المجرفة ذا الحديد المركّز على قبضته الخشبيّة في زاوية حادّة ؛ واحياناً يستعملن الماشطة يعني مشطاً من حديد ذا قبضة تؤخذ بكلتا اليدين لتُمرّانه أفقياً على الارض . وفي الحقل الفني ظهرت الاشياء

المصنوعة في شكلها الكامل، فالاقنعة التي تستعمل في الاحتفالات الدينيّة الخاصّة بادخال الفتيان في جديدهم كرجل، تصنع من نسيج، ومن خشب، ومن لحاءٍ وقشور.

أما الحفلات الخاصّة بالصبايا، لإدخالهم حياة المرأة، فانها تفوق الحفلات الخاصّة بالفتيان اهميّة، وتعطي الصبايا حياةً جنسيّة حرّة. ففي مثل هذه الحفلات عند جماعة نيانجا « Nyanja »، بالقرب من بحيرة نياسّا، توضّح الاحوال الجنسيّة، وتبلغ ذروتها، إذ تُعرض دميةٌ من جصّ رمزيّة، يتمثّل فيها التوضيح مكشوفاً، كما كان يجري سابقاً في أثينا، في هيكل ألوزيس Eleusis.

ويبدو البحث في إقامة معادلة زوجيّة غير ذي موضوع، أو غير ذي وجود، عند سكان نياسّا لند، حيث يأتي الرجل ليقيم بالقرب من اهل الزوجة؛ فينتسب الاولاد إلى ذوي الأمّ؛ وهكذا يصبح الزوج مجرّداً من السلطة عمليّاً، إذ يصبح الاخ الثاني للمرأة الشخص السيّد في تدبير المنزل. والزوج يعمل جاهداً ليجد من تجوز سلطته عليه، في جوّ هذه اوصافه: الزوج الفتى، في أول عهده بالزواج، يسكن على مقربة من اهل امرأته؛ فيقوم بحراثة اراضي حميه ويقدّم له دفعات على حساب غلالها؛ والدفعة الاخيرة منها تعطي الزواج صفته النهائية، وتتيح للزوج ان يصبح سيّد امرأته واولاده. ومبدأ الاقامة في ظل

الحؤولة الذي يُعمل بموجبه، في هذه المجتمعات المتسب ابناؤها إلى الأم، توجب ان يذهب الصبيّ، بعد أن يقضي حداثته، إلى العيش في كنف خاله، فيقوم هذا بتربيته ويستجيب إلى متطلّباته شاباً. وعند موت الخال يعود ميراثه إلى اخوته، غير البكر منهم؛ وان لم يكن له اخ فبكر اخته الكبرى يصبح مالكا بيت الخال، واراضيه، واثاثه، ويصبح، في الوقت نفسه، عائلاً الارملة. وهنا يدرك مراقب هذه الحال انّ الرجل المسنّ تتقاسمه هموم مستقبل ابنه وهموم واجباته نحو وريثه الشرعيّ ابن أخته. وهكذا تتضح لهذه المجتمعات افضليّة زواج الابن بابنة خالته؛ لأنّ زواجاً كهذا يضمن للحفيد — ابن الابن — التمتّع بالإرث الذي سيتمتع به ابن الأخت.

ويزعمون حوادث طبيعيّة للتملّك بالارث تُداخل عبادة الاجداد، يقع تأثيرها على النساء غالباً. ففي مجتمعات الوسط من هذه المنطقة، يتداولون مأثوراً من أوهامهم الدينيّة ينسبونه إلى دودة تخرج من الجسم، وهو ينحلّ، لتصير طائراً جارحاً؛ وقد جاءهم هذا الوهم من الشرق، حيث تتمثّله المجتمعات الارستقراطيّة في منطقة البحيرات. وهذا التطوّر، من دودة إلى طائر جارح لا يحدث إلا في اجسام شخصيّات بارزة. امّا طقس عبادة جماجم الرؤساء فيمكن ان ننسبه إلى المصدر الشرقي نفسه؛ بينما طقس عبادة الشجرة المقدّسة، في القرية، يعود

بنا إلى الغرب وإلى الشمال . واخيراً نذكر انهم، في كل بلاد انغولا وما يتّصل بها من الجنوب يتناقلون تقليداً دينياً يزعم وجود أشباح قبور ، حيث يتخيّل التقليـــد قبوراً لصيادين مشهورين، تذكّر قبورهم بقبور « Heitsi Eibib »، او روح المروج والصيد الذي يقدّم له البوشيمان والهوتانتو الاجلال نفسه .

٦ – افريقيا الاستوائية

قلب افريقيا أو «قلب الظلمات» او الغابة الاستوائيّة الكبرى، مستوطن السود الكونغوليين كلهم تقريبا . وتشتمل هذه المنطقة، سياسيّاً، على القسم الاكبر من قسمي الكونغو : الكينشاسا، والبرازاڤيل، والغابون، والغينه الاسبانية، والقسم الجنوبي من الكاميرون .

وترتفع في شرق هذه المنطقة سلسلة مرتفعات تغتسل سفوحها في البحيرات الكبرى ؛ فتبدو، وكأنها قاعٌ مخطّط الجوانب، او مقعّر هائل الكبر، يقسمه الخط الاستوائي إلى نصفين، ماراً بالقرب من كوكيلْها تقيل . ويبلغ علو المسطّح الوسطي عن البحر اكثر من ٤٠٠ متر ؛ وتلتفّ على جوانبه هضاب مدرّجة تخترق الممرّ الذي يؤدّي إلى الكونغو .

ونهر الكونغو يُعتبر اكثر انهار العالم الكبيرة نظاماً في تدفّقه :

فهو في مجراه الوسطي يجري على محور خط الاستواء، وهذا كسب له إذ يتلقّى الامطار باستمرار، فهو لا يعرف فيضاناً ضخماً مثل فيضانات النيل، والزامبيز، والنيجر. ولكنّ القشرة الارضيّة، من حوله، تؤلّف مدرّجات تجعل مجراه الطويل، في خطّ فريد، في كثرة اصطدام مياهه بالنواتىء الارضيّة. وابرز ما تجب الاشارة اليه ان شبكة المياه الكونغولية، نهراً وروافد، تظهر، وكأنها مؤلّفة من قطع سواق ساء الاتصال في ما بينها؛ فهي متقاطعة يفصل بعضها عن البعض الآخر تفاوت مفاجىء بين سطوح مياهها، وهو تفاوت تسبّبه انخفاضات في القشرة الارضيّة تتجاوز الحدّ المعتدل لتصبح مهاوي عميقة في مدار هذا القاع الاستوائي، وعن هذا ينتج تتابع الشلالات والانحدارات السريعة التدفّق، حتى في الاقنية الطويلة الهادئة.

وهذا الحوض الكونغولي غير المستوي القشرة تكاد تخنقه المياه: ففيه عدد كبير من الانهار القويّة، والبحيرات، والاراضي الموحلة، وفيه غابات ذات اشجار باسقة غليظة، حيث يسيطر الظلّ وتستبدّ الرطوبة. لا ماشية هناك ما عدا الماعز. وفي كلّ يوم تمارس الشمس على هذه الكميّات الضخمة من المياه عملا تبخيرياً قوياً، وبعد الظهر من كلّ يوم تتلبّد السماء بالغيوم؛ وقبل الغسق او عند مغيب الشمس، تتبدّد الغيوم، وغالباً ما يكون هذا في عاصفة. أمّا الليل فخفيف العتمة ورطب،

ويستمرّ على حاله هذه حتى تتجدّد عمليّة التبخير . والامطار ترافق أشهر السنة كلها بشيء من تشابه التوزيع ، ما خلا شهري اذار وتشرين الاول، فنصيبهـا اكبر بشكل ملحوظ ؛ والحرارة تتراوح باستمرار بين ٢٦ و٢٨ درجة . وهذا البقاء على حال واحدة يؤدي إلى انعدام الفصول ؛ فالأيام والاشهر تتالى متماثلة، دون أن يظهر جديد في طبيعة هذا الاقليم .

أمّا على الهضبات التي تحيط بهذا الحوض، فيحلّ معدّل المطر، في المناخ الحارّ ذي الامطار الفصليّة، مكان المعدّل في المناخ الاستوائي ؛ والغابة، التي تزول ظلالها، تتراجع من أمام المرج الكبير العشيب . وفي الجنوب تغطي السهوب ذات البقاع المُشجرة كل الهضبات تقريباً، في ما بين الكونغو والزامبيز ومنطقة كاتانغا . وفي الشمال لا يبدأ مثل هذه البقاع في الظهور الا على ارتفاع نهر الأوبانغي، وعند منابع السانغا، حيث تتّصل بالاقليم السوداني ؛ وهذه الاراضي تكوّن حدّاً بين مناطق زراعة الحبوب ومناطق زراعة القلقاسيّات، وبين ارض الذّرة البيضاء والمنيهوك .

والمساكن، في هذه الغابة، تبنى، في شكل مستطيلات، من الخشب او الأوراق المكثّفة ؛ فيبدأ الكوخ اوّلا بحاجز نظر، مبنيّ من الاغصان الصغيرة، المستندة إلى غصن وطيء ؛ ثم يستقيم محتفظاً بسقف كثير الانحناء مصنوع من الصنوبر، تاركاً لجانبي

السقف ان يجتمعا، في اعلاهما، إلى جسر محدّب الجانبين، كأنّه ضلع من ضلوع سطوحنا القرميديّة، بينما يرتكز هذان الجانبان من السقف على اعمدة؛ وترتفع الحيطان مبنيّة من اللحاء والقشور، أو من الاغصان الصغيرة. وهناك صفّان تتلاحق فيهما المساكن، لتؤلّف ضفّتين من البشر، لشارع ينتهي بزاوية مستقيمة مع ضفّة النهر. أمّا ما يلفت النظر، من جهة الحياة في هذا الشارع، انّه يقوم، على كلّ من طرفيه، بيتان مشتركان: اثنان لكي يأكل الرجال فيهما، والآخران لاستقبال الأجانب. ومساحة الارض المحروثة، الكائنة، خلف المساكن، مغروسة من اشجار الموز، ومزروعة من انواع القلقاسيّات، يلجأون اليها كلما نفذت المؤن المجموعة: في رحلات الصيد البحري، أو القنص البرّي، أو اعمال القطاف.

ويستعملون للصيد حفراً يختبيء القناصون فيها، تحت أغصان تُلقى أفقياً على مداخل هذه الحفر، وقد ارتفعت اليها، من اسافل الحُفر، اوتاد تسندها، لتحطّ عليها الطيور فيتناولها غدر المختبئين. ومن المعتاد، في هذا الاقليم، ان يقطفوا ثمارهم ويجمعوا غلاّتهم في الفصل الأقلّ رطوبة، بعد مرور الشمس إلى خط الهاجرة؛ وعندئذ ايضاً يجمعون ما استطاعوا من الثمار البريّة، واهمها نوعان: ثمار النخيل الزيتي والأكاسيا: الأول يستهلكون حبّاته الغنيّة بالزيت او يعتصرونها مسحوقة، والثاني وهو من البطميّات

تغلى ثماره ليُحسى ماؤها مباشرة، او ليحفظ، مضافاً اليه بعض الملح والفليفلة.

وبعد مرور بعض سنوات على وجود قرية، يأخذ أهلها في التركيز على الاستفادة من الزراعة. وفي اول عهدهم ببناء القرية، يبدأ الرجال بقطع الاشجار القائمة في جوار مساكنهم، وهي اشجار تتراوح جذوعها بين المترين والثلاثة علوآ، فكانوا يفسحون بقطعها حول المنازل، ويحرقونها فتبقى فضلاتها النباتية سماداً للتربة. وفي هذه التربة كانوا يغرسون الموز والمنيهوك، ويطمرون البطاطا، والقلقاس، وبذور البندورة، مستعملين المجرفة ذات الحديدة الضيّقة او المعول المجرفة. واذا لم يتوفّر لهم فصل نشوفة، فانهم لا يستسلمون لانعدام الرزق، ولا يحتاجون إلى فصل معيّن للجنى؛ فينطلقون كلّما دعتهم الحاجة إلى جمع ما يؤمّن قوتهم اليوميّ. ومثل هذه الوسائل المعيشيّة تذكّرنا بجيرانهم البيغميين، الذين تذهب نساؤهم، في رحلات يوميّة لتقتلع اصولاً تعرفها صالحة للاستهلاك، أو تذكّرنا بالنساء السوداوات، اللواتي يذهبن كل مساء ليرفعن التربة عن بعض البطاطا او المنيهوك، ويصنعن منها طعام اليوم. وبعد حين من الزمان يشحّ عطاء هذه الارض القليلة الخصب، فما على المقيمين فوقها غير الرحيل إلى فتح فجوات جديدة في مكان آخر من الغابة. وعندما يقع اختيارهم على المكان الجديد يقيمون عليه

مساكن مؤقتة، يأوي اليها الرجال الاشدّاء وعدد كبير من النساء، مدّة الاعمال التمهيديّة وفترة اوائل القطاف . ويتخلّف، عن الذهاب إلى العمل ، بعض الرجــال الذين يُختارون كحرّاس لهذه المساكن الموقّتة يدفعون عنها شرّ القرود ، والفيلـة ، والكركدنّ . وقد تتكرّر حكاية نضوب موارد الرزق، فالانتقال، ففتح الفجوات في الغابة إلى أن يأتي وقت يرى فيه أولئك المتنقلون ان ذلك الجناح من الارض لم يعد صالحاً للاقامة عليه : عندئذ تنتقل القرية . إلى اين تنتقل ؟ إلى مسافة عشرين او ثلاثين كيلومتراً، حيث تُبنى قرية أخرى . ولكنّ هذه القرية الجديدة لا يعيش فيها كل الذين كانوا في القرية السابقة ؛ لأن بعضاً منهم آثروا مكانا آخر جديداً، ولأن نفراً آخرين رأوا أن يلتحقوا بأقرباء لهم ينزلون على بعد منهم . وهكذا فالقرية لا تستقر طويلاً لا في عدد سكانها ولا في مكانها .

أمّا على الهضبات، وفي كل المنطقة المكتشفة منها ؛ في الحدائق، وفي المروج، وفي الغابات ذات الفجوات، فتبدو الجماعات البشرية اكثر اهميّة، والاجتماع بين القرى أقرب حدوثاً، واننا هنا امام قبيلة واحدة، يعترف سائر افرادها بسيادة رئيس، أو أننا، على مشهد، من اتحاد موقّت، غايته، كانت في ما مضى ، السلب والنّهب، وهي ، اليوم، رحلة صيد، في الغالب . والبيت المستطيل يترك مكانه للمسكن الاسطواني ذي السقف

المخروطي المغطى بالهشيم. وهناك بقيّة ممّن يبنون بيوتهم مستطيلة، هم قبائل الحوض الأعلى لنهر الكازايي، احد روافد الكونغو. ولكنّ الغابات ذات الفجوات من جهة، والأنهار الكثيرة العدد من جهة أخرى، تجعل هذه الاقاليم اكثر قبولاً للسكن: ففيها البايا كا، والبامبالا، والباكوبا هؤلاء كلّهم يعيشون حياة تختلف بعض الاختلاف عن حياة الغابة والمروج، ولكنها تشترك باشياء مع الاثنتين، وتنفرد عنهما بصناعات يدويّة كثيرة الانتشار. أمّا في الشمال الشرقي فعلى العكس، المسكن مستدير داخلٌ في الغابة، وبُناة هذا النوع من المساكن هم من أهل الشمال أصلا.

الغابة تتلقى الآتين اليها من الناس، ولكنها لا تُرجع منهم أبداً، فهي حاجز ضخم يعترض المواصلات، ويجزّىء الجماعات المغلوبين، المطرودين من المروج، الآتين قهراً يطلبون فيها ملجأ. ولا يُفهم من هذا انها كثيرة السكان، فأمرها على العكس: ساكنان لكلّ كلم[٢]، وتشتمل هذه القلّة من السكان على مجتمعات لا تُعدّ، أو بالاحرى على شراذم من الناس المسحوقين. واذا كان هنالك من حياة فهي على شواطىء الأنهار، رغماً من وجود حشرة تسيه ـ تسيه: فالنهر معبر صالح للانتقال من أرض شحّ خيرها إلى أخرى تنتظر يداً تنقب. والزوارق الشراعيّة تحلّ مسألة نقل المؤن.

وعلى سدّ الكونغو الواسع الصالح للملاحة، القائم بين بحيرتي: ستانلي فالس وستانلي پول، تحرّكت التجارة منذ قرون على متون المراكب الشراعيّة لملاّحيها من الباتيكي، أو البالولو، أو البارومبي. وكانت الموادّ التي يتناقلها التجّار تتغيّر، مرّة بعد أخرى: فمن فستق العبيد، إلى المنيهوك، إلى السمك المدخّن، إلى العاج. وهناك بضاعة أخرى، لا يجوز ان ننساها، حلّت محل اللوز، والبلح، والكاوتشوك، هي العبيد. وفي طريق العودة كان التجّار يحمّاون المراكب ادوات نحاسيّة، او نسيجاً من كتّان، أو فخّاريات؛ كما انّ الرزم الصغيرة الاوروبيّة، التي استودعها المتناقلون في مخازنهم الساحلية، كان ينقلها إلى النهر حمّالون، او مرزّمون من الباكونغوليين، هم في الوقت نفسه تجّار. والمقيمون، على ضفاف تلك الأنهر الصالحة للملاحة، هم اختصاصيّونَ في النقليّات المائية، لا فرق أيّة كانت نسبتهم. انهم لا يستعملون النقود الحقيقيّة بل يستعيضون عنها بأشياء معدنيّة ذات قياسات وأوزان قلّما تنقص او تزيد: كنصلة سيف، او حديدة فأس، او حديدة ترس، او كبعض البضائع المستوردة: من زمرّد زجاجيّ، وسيراميك للزينة، تتحلّى به أعناق الشيوخ، أو يحفظ في أعماق الصناديق، أو يدفن مع مالكه.

والاحتفال الديني بالصبيان، لادخالهم دينهم، يحمل طابعه

الخاص في الختانة التي ترافقه ؛ والشماليّون يستعيضون عنه بالاضاحي . ومهما تكن حقيقة هذا الاحتفال ، فلا بدّ من أن يقترن برياضة روحيّة ، خارج القرية ، وهذا ما يجعل مجتمع الرجال جمعيّة سريّة تقريباً . وهذا الاحتفال الختانيّ باب على الميثولوجيّات التي تُلمح إلى الشمس ، وإلى ارواحِ البريّة ، وإلى عبادة الموتى ، ويحظر على النساء ان يقتربن منه حظراً لا ذريعة له ؛ ولكنّ الاسطورة تروي انّ امرأة كشفت القناع الاول عنه . ومرحلة الإدراك الجنسي عند الفتيات تشبه مرحلة سجن مع اشغال شاقّة ، حيث تُقيم الصبيّة بطّالة وتأكل كثيراً : لأنه يجب أن تبلغ الزواج سمينة ولونها مشرق .

والنظام ، في الغالب ، ديمقراطي ، فالعشائر تعتمد الانتساب الابويّ ، ما عدا قليلاً منها ، ذلك القليل الذي أبعدته موجات الهجرة إلى الغرب ، فدخل في نظام المجتمعات التي تنتسب إلى الأمّ . والوحدة الفريدة المعترف بها هي القبيلة أو العشيرة ، التي يؤمن اعضاؤها انهم يتحدّرون من جدّ أعلى واحد ، وان تفرّقوا في قرىً كثيرة متباعدة الامكنة . والقرية نفسها تُرى احياناً كثيرة متحرّكة ، فلا تعود تخضع إلى سلطة عليا . ومن هنا تنشأ استحالة تقسيم البلاد على قاعدة جغرافية ، إلى شبه أقضية يخضع سكانها لتعليمات رئيس واحد . حتّى انّ أصلاء البلاد أنفسهم ،

هم اليوم، قيد العمل على تجديد التجمّعات في بعض المناطق، كما هي الحال في بعض ضفاف الغابون .

وفي الجنوب، يحتفظون بذكرى الدول، التي كانت تُعرف بمملكة الكونغو، وامبراطوريّات : لوندا، ولوبا، وشانغو، والتي تجعلها التقاليد صنع غريب صيّاد . وهكذا نرى ان امبراطوريّة اللوندانيين ، التي كانت تضمّ انغولا والكونغو البلجيكي، مدينةً بنشأتها لصيّاد توبيّ ظهر في أوائل القرن السابع عشر، فتوزّع المتحدّرون منه، في الشرق والشمال .

البورتغالي كاوُ اكتشف مصب الكونغو سنة ١٤٨٢ ؛ وهناك نصب حجريّ سُجّلت عليه ملكيته هذا الاكتشاف . وهذا للبورتغالي كان اوّل اوروبي وصل إلى مانيكونغو، حيث كانت مملكة قائمة في ما بين لوانغو، وكوانغو، وكوانزا . وكان جيران هذه المملكة، من رؤساء الدول، ينتسبون إلى ملكها ببعض القرابة ويعترفون بأنهم من مرؤوسيه . وفي منتصف القرن السادس عشر اعتنق الفونسو الاول، المللك المانيكونغولي، المذهب الكاثوليكي، ودعا إلى بلاده عمّالا اوروبيين، ومرسَلين، وتجّاراً . وقد بقيت دولة الكونغو هذه، مسيحيّةً زهاء قرنين، شيدت خلالهما كنائس كثيرة، ودُمّرت ألوف الاصنام . وكانت السفن التي تأتي شواطئها، محمّلةً مصنوعات اوروبية، تعود مشحونةً من العبيد . وبعد غزوات وحروب اهليّة، تمكن أصلاء البلاد،

سنة ١٧١٧، من طرد آخر من تبقّى من المرسلين، ومن قطع كل علاقاتهم بالبورتغال. وهكذا تقلّص التأثير المسيحي وبدت طلائع الردّة إلى المذاهب الدينيّة المحليّة، ولكن مع انطباع بارز بعبادة الاشخاص والاشياء. وبعد مئة وخمسين سنة اصبح الصليب شارة الحماية من الشرور او رمز الأجداد؛ وظهرت تماثيل صغيرة ذات مهمّة سحريّة، في بطن كلّ واحد منها تجويفة تغشاها قطعة زجاج، بمثابة ذكرى من مبشّرين أوروبيين، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر؛ وظهرت تماثيل أخرى مغروزة فيها مسامير، تذكّر بعادة استمرّت جارية حتى الأمس القريب في برازينا، حيث يشكّون دبّوساً في رسم قدّيس لإرغامه على قبول نذر. وفي سنة ١٨٧٥، زار الألماني باستيان سان سالقادور، عاصمة الكونغو قديماً: انه لم يجد فيها غير خرائب أبنية حجريّة؛ ولكنّ اللغة المحلية في العاصمة، والمفهومة في كل البلاد، كانت ما تزال اللغة المستعملة في المواصلات.

واذا مضينا شرقاً نجد شعب البالوبا، الذي يبلغ عدده حوالي سمائة ألف، شاغلاً المنطقة الواقعة بين الدرجة السادسة والثانية عشرة من العرض الجنوبي، وبين الدرجة ٢٤ والدرجة ٢٩ من الطول الشرقي. ومن المعروف ان هذا الشعب كانت له دول كبيرة منذ القرن السادس عشر؛ ولكن تاريخها ما يزال مظلماً، وبعض هذه الدول بقي قائماً إلى آخر القرن التاسع عشر.

ولنمضِ ايضاً إلى الشرق، في منطقة الشعب الكازايي، نجد جماعات اَلباكوبا او البوشونغو، «شعب رشق السكاكين»، وهي تقسم إلى سبع عشرة قبيلة. وهذه القبائل تعيش تحت سلطة «ملك الهي»، في البلاد الواقعة بين نهرَي سانكورو وكازايي، وبين الدرجتين الرابعة والخامسة من العرض الجنوبي. ويبدو أن هذه، القبائل جاءت من ضفاف الأوبانغوي والشاري. وعن هؤلاء يعطينا توردّاي، وقد زارهم سنة ١٩٠٨، جدولاً بأسلاف الملك، الذين حسبهم مئةً وعشرين تتألف منهم السلالة. أمّا بطلهم الممدّن وملكهم الأقوى، شامبا بولونغوكونغو، فهو الذي جدّد نظام الحكم، في اوائل القرن السابع عشر؛ وكان من تجديده انه منع عادة استعمال القوس والسّهام، وعادة رشق السكاكين، بغيةَ إلغاء الحرب. وإلى عهده ينسبون استعمال زيت البلح، ومعرفة بلاده زراعتي المنيهوك، والتبغ، ونسيج خيوط الكتان، وتطريز الكتان باتقان يكسبه شكل المخمل. ولمكانة هذا البطل في شعبه، فان أقدمَ تمثال ملكي خشبي ظهر عندهم هو تمثاله.

كل هذه الدول كانت ذات نظام اقطاعي، وذوو الاقطاع فيها ستة او اربعة ملوك، كل منهم سيّد ولاية، وكلهم يؤلفون لفيفاً دوليّاً حول الملك الرئيسي او كما يُدعى عندهم «وسط العالم». وفي دولة اليوم، عند هؤلاء يقول توردّاي: الملك،

نيمي كان يترأس مجلساً، اخذ فيه مكانه كل من رئيس الوزراء، ووزير الحربيّة، وممثلو الولايات الاربع المؤلفة منها المملكة ؛ وبين هؤلاء، المتحلقين حول اكبرهم، امرأتان من اخوات نيمي او بناته . وكانت احدى هاتين المرأتين، بوصفها حارسة السلام، تحمل وتر قوس يلتف على عنقها ؛ تنتزعه لتسلّمه بجفاوة رسميّة لوزير الحربيّة عندما ينشب خلاف، ولتستردّه عندما ينتهي الامر إلى السلام . وبلاط الملك يجمع عدداً كبيراً من الموظفين ، ومن ممثلي كل المهن والقبائل التابعة لسلطته، وبين هؤلاء الشعب البيغمي .

والمؤرخ، الموكول اليه امر الاحتفاظ بالأساطير والتقاليد، كان ابن الملك المسيطر على سائر الأمراء سيطرةً صارمة . وعندما تُعقد اجتماعات المجلس الكبير ، يجلس الملك على منصّة، ومن حوله وزراؤه ؛ وتأخذ امّه مكانها إلى جانبه، على أريكة أعلى . ويبدو من ظاهر النظام أنّ الملك ذو سلطة مطلقة، ولكنّها سلطة لا تتناول أكثر من اعضاء قبيلته الخاصّة، البامبالا . وهؤلاء لا يعتبرونه رئيسهم الزائل فقط، بل يرونه الحلقة، التي تستعيد فيها الحياة بطولة موسس البومبا، التي تعطي الشمس لمعانها، وترسل المطر لينعش الارض ويخصبها . وكل إهانة تلحق بالملك تُعدّ إهانة تشمل القبيلة كلها ؛ وكل مرض يصيبه، او ضعف بسيط ينزل به، يُحسب إشارة إلى خطر يتناول الجميع . والملك،

فيما مضى ، كان لا يمسّ التراب خوفاً من أن يحرقه ؛ لذلك كان ينتقل محمولاً على كتفي خادم . ومثل هذا التحريم على الملوك ما يزال قائماً، في بعض جهات افريقيا الشرقية، في دول تتماثل فيها معالم الحياة . فقرابة هذه الحضارات حقيقة راهنة، يشير اليها بوضوح ما ارتسم، على صفحة الطبقة الارستقراطيّة، من ركائزها القديمة .

٧ ـ افريقيا الغربية

يمتدّ اقليم الغابات على طول الساحل الغربي حتّى نيجيريا . وهناك خطّ من الانفصام الارضي يفصل كتلة الوسط الافريقي عن كتلة الاحراج الغينيّة . وهذا الخط الانفصامي يتصل بالطريقة التي تمر بالكاوار والفزّان وتنتهي إلى المتوسّط . ويتميّز ساحل هذا الخليج بأمطاره ونباتاته المعتدلة، ويؤذن بأن تتجاور الذرة والنخيل . وليس من باب المصادفة ان نجد، تحت سماء صافية الاديم، مساحات من الارض شهدت ازدهار مدنيّات رفيعة : في إيفه، وبينين، والداهومي .

واذا صعدنا قليلاً نحو الشمال، تتفرّج [١] الغابة، وتتراجع امام

---

(١) تبدو فيها انفراجات، أي بقاع خفيفة الشجر او قليلته .

مروج تتخلّلها جزر صغيرة خضراء . والوسطان الغانيّ والشاطىء العاجيّ، وجنوب شرق الغوينه تؤلّف منطقة واحدة خصبة منتظمة الريّ من نيسان إلى تشرين الثاني . وبفضل تربة متحرّكة عميقة، غالباً، تتكاثر انواع المزروعات والمغروسات، متجاورة : كالقلقاسيّات، وشجر الموز والبن، والأرز، وسائر انواع الحبوب.

من أعلى نهر الكازامانس حتّى شمال الداهومي، هناك يظهر الكاريته ويبتدىء السودان، على حدّ المثل التقليدي عندهم . وهناك ترتفع اشجار جميلة، بينها الضخم كشجرة الكابوتيا او فروماجي [1]، وتكثر انواع الحبوب كثرةً لا يفسدها غير الحرائق الّتي تندلع كل سنة قبل سقوط الأمطار . وهذه الامطار تسقط بشكل سيول جارفة من نيسان إلى تشرين الثاني، تغسل المنحدرات، وتعرّي الصخور الحديديّة [2] . ولكن هذه التربة، السهلة التفتيت، جاحدة تدفع بالانسان إلى البعيد، عندما تجعله عرضةً دائمة لحشرة تسيه – تسيه . وهكذا أقفرت من السكّان بقاع غنيّة بمادّة الحديد . فلم يبق غير زرّاع الذرة البيضاء « أفقر انواع حبوب الطحين بالغذاء »، أو بعض الصيادين الذين لا مرتزق لهم سوى الصيد . من هؤلاء بعض الغينيين المعروفين

---

(١) نعني بها الشجرة الّتي يجنون من ثمار الكابوك الّتي تشتهر بشكل القطن ونعومة الحرير .

(٢) المحتوية مادة الحديد (المترجم) .

بكونيغوي ، ومنهم البوبو ، واللوبي في شمال الشاطىء العاجي ، ومنهم سكان شمال غانا وشمال الداهومي ونيجيريا ؛ وكل هؤلاء استمرّوا، زمناً طويلاً، صيداً لتجّار الرقيق ولمعاونيهم، في تأمين هذه البضاعة، من صغار الملوك في غينيه او اشباه الامبراطرة في السودان .

واذا أبعدنا إلى الشمال أيضاً، وجدنا ان الظلال توشك ان تختفي على الهضاب لضعف النبات في نموّه، ووجدنا انّ القيعان الرطبة افضل نباتاً . والإشتاء المشمس يبقى دافئاً ؛ ولكنّ نشوفة خمسة أشهر متتالية تجعل حركة الرياح قويّة . وتبقى هذه المنطقة منتجعاً يقصده مربّو الماشية من البول، ليرعوا فيه ثيرانهم ذات السّنام، فهي ارض الذرة البيضاء وفستق العبيد .

واذا ما دانيت السهل، فالبريّة تصبح ذات اشواك، يتكاثر فيها النّخيل الافريقي . والرمال، التي تحملها الرياح الموسميّة القاريّة، بعد أن اجتازت الصحراء الكبرى، تغزو كلّ شيء . وفلاح هذه المنطقة لا يستطيع ان يعتمد إلاّ على أمطار قويّة تهطل لعدّة ساعات، بين تموز وايلول . ومربّي الماشية يسرّه الاشتاء بين الأشواك البريّة ؛ حتى اذا انقضت مدّة الجفاف، رجع ينتجع الغذاء لماشيته عند منابع الانهار ، وإلى جانب حافّات الآبار . غير أنّ وادي السنغال الاسفل، والحوض النيجيري، ضفاف بحيرة التشاد، كل هذه يجب ان نستثنيها من الوصف

الذي قدمنا، على الرغم من انها خط العرض نفسه : فهناك ما يوجب هذا الاستثناء : كالفيضان السنوي، او كالوجود الدائم لطبقة من الماء العذب يمكن مع هذه أو ذاك ان يُزرع الأرزّ، او تُربّى الماشية، او يمارس صيد الأسماك. حتّى اذا تخلّص السكان من هموم القوت اليوميّ قاموا بأعمال، غير السعي إلى الشبع ؛ وهذه الاعمال تختلف وتتنوّع : بين السلب، والنهب، والسبي، حتّى ولو كان المعتدى عليهم اقرباء، اخوة، رحّلاً، أو مقيمين، صيادي اسماك. ولا ينجو من هذه الاعتداءات الاّ السود المنتمون إلى ممالك قائمة كبيرة.

ان الغرب الافريقي الكائن، ابتداءاً من الواحات الصحراوية إلى الغابة يُعتبر عالماً قائماً بذاته : عالم فلاحين يأكلون حصادهم. ويذهب الباعة المنادون « الدلاّلون »، والمروّجون لبعض السلع، في فصل الجفاف، من سوق إلى أخرى، يسوقون حميرهم المحملة ملحاً، او كولا « جوز الكولا »، او أفاويه، او متنوّعات بضائع خفيفة اوروبيّة. ويذهب بعضهم، وهم يسوقون ثيراناً يبيعونها وراء الحدود، بضاعةً مهرّبة. ولكنّ اكثرهم، اذا ما جاءَ زمن الاشتاء، يعودون إلى قراهم ليعاودوا عملهم في حراثة الارض. وكذلك النجّارون، والحدّادون، والحرفيّون يردّهم فصل الزراعة إلى صفة فلاّحين. وهم ما يزالون حتّى اليوم تنتابهم حركة الزراعة المتأصلة فيهم، فعند أوّل إمطار، يترك

اصحاب الأعمال الإداريّة مراكزهم في المدينة ليعودوا إلى حراثة اراضيهم؛ وتبقى أعمالهم الأخرى تنتظر نهاية موسم الحصاد.

وينتقون حقل العمل الزراعي على ارض كثيرة الشجر. وعندما يحين موسم الأمطار، تقوم العائلة كلّها بتأدية المراسيم الخاصّة باستدرار المطر ملائماً الحاجة الزراعيّة، ثم يجيء دور عمليّة التجديف، أي قطع الاغصان عن الجذع، فتبقى الاشجار جذوعاً تعلو عن الارض علو قامة الرجل، مستثنين الاشجار النافعة فلا يجردونها من اغصانها؛ لأن النار يجب أن تُتلف اقلّ عدد ممكن من الاشجار. وعندما يجفّ كل شيء تُضرم النار في الهشيم لكي تطهّر التربة وتعطيها سماداً. ثم يزرعون الحبوب بعد أن يقلبوا قشرة الارض ليختلط الرماد بترابها، او على الأصح، ما بقي من الرماد بعد أن عبثت به الرياح؛ كما انهم لا يعمّقون قلب القشرة الارضيّة مخافة ان يرفعوا من العمق تربةً معدنية جدباء. وبعد تكرار التعشيب مرتين او ثلاث، وهو من اعمال النساء والاولاد، ينتظرون الحصاد ليقوموا به عملا مشتركاً بين جميع أفراد العشيرة. وموسم السنة الأولى غني بالحاصلات عادة: من ذرة بيضاء، وفستق او ارز حسب المنطقة. ولكنّ السنة الثانية يتدنّى خيرها؛ فيعمدون إلى استبدال الانواع الزراعية بأخرى، من فصل إلى فصل، وسنة إلى سنة حتى استنزاف آخر ما فيها من خير للعطاء، يكون آخره المنيهوك

وعندئذٍ تُترك الأرض المستنزفة لترتاح ويجري البحث عن سواها، وما هي غير فترة من الزمن حتى يكون الباحثون عن رزقهم قد نقلوا قريتهم إلى المكان الجديد المختار، او يكونوا قد فرغوا من بناء ملجأ موقت على الارض التي باشروا عملهم الزراعي فيها. وهكذا نرى ان طريقة هؤلاء الافريقيين تقضي بنقل الزراعة إلى ارض جديدة بعد استنزاف ارض زرعوها قبلاً وهذه الطريقة يجري العمل بموجبها على عكس ما هي الحال في الاقاليم المعتدلة، ذات الزراعة المكثّفة، التي تبحث عن التوازن بين ما تتطلّبه النباتات المزروعة من غذاء وبين المتوفّر لها منه في التربة المعدّة للزراعة. وقد يأخذون، في الاقاليم المعتدلة، بتعاقب المزروعات المختلفة الغذاء، على الارض الواحدة، عملا في الإبقاء على التوازن المعتمد اساساً للزراعة بين التربة والنبات.

ولهؤلاء الافريقيين الغربيين حوش يكون، في الغالب، خلف مساكنهم يخصّونه بالبقول: ويُعنون تربته بالفضلات العضويّة التي يدفنونها فيها؛ فيصبح هذا الحوش صالحاً للزراعة المكثفة، ولو دون سقي. وعلى مصاطب يجعلونها موضع عناية خاصّة تبدو سويقات الذرة الصفراء مزروعة جماماً، كما تبدو اوراق القلقاسيّات النامية في قلب التربة؛ من بطاطا وغيرها. والذرة التي تنضج كموسم شتويّ تفسح المجال لزراعة قلقاسيّة. وهكذا تتالى مواسم الحصاد حتى فصل الجفاف. ونجد احيانا إلى

جانب قناة ماء صغيرة بستانا مروياً بادي العناية ، تآلفت على تربته : البندورة، والفليفلة، والأفاويه، واللوبياء، والحمّص، والباذنجان . وكثيراً ما يجري اتفاق بين زارع أسود ومربّي ماشية پولي على تسميد التربة ، فيتم الاتفاق بابعاد الماشية عن الحقل ايام الامطار ، واعادتها الى غزوها في فصل الجفاف .

والتقنيّون من هؤلاء الافريقيين يجعلون الاوروبيين في حالة من عدم الارتياح إلى مشاهد هذه الحقول الغليظة، التي تحمل على اليأس ممّا يسمّونه زراعةً : فالحقل مزروعٌ فوضى ، تتمثّل في كتل مطروحة هنا وهناك، وفي جذوع مكلّسة، وفي انّه لا حدود واضحة له . وعلى الرغم من هذا كلّه، فطرق الزراعة عند هؤلاء الفلاحين ليست غير معقولة، فهي قابلة التحسين دون الخروج عن الاسلوب التقليدي، عاملين بقول الاب غورو : « إنلك لا تأمر الطبيعة في الاقاليم الحارّة إلاّ وانت تطيعها » . ولقد خرجت تجارب الحراثة المعمّقة بالسكك الطويلة بنتائج محزنة ؛ لأن اثلامها كانت جراحاً اشدّ خطراً من النار ، والسكة ، وهي تعمل لزيادة الارض المحروثة، تستأصل الشجر ، وتقصّر الاستراحات، وتعرّض المستقبل إلى الخطر . فالفلاح الافريقي لا يستطيع ان يحدّ نفسه في قطعة ارض، لأنّ بؤس البلاد يحرّم عليه هذه المحدوديّة . واخيراً، ليس الاسود بتارك وطنه مختاراً، وهو دائم اللصوق بأرضه، حتى ولو كانت سيئة . ولقد اصبح

امتداد حقول الأرزّ المغمورة بالمياة، موضع امل ؛ فعرفته اراضي جنوب الغينه، كما عرفته شبكة مياه النيجر الأعلى ؛ ولكنه امتداد قلّ أن وصل إلى الحقول الواسعة في داخل البراري الحارّة .

انها مغايرة للعُرف وللواقع ان تبحث عن مناخ معتدل نسبيّاً في بلاد استوائية : فالمناطق الأكثر ملائمة للسكن، في افريقيا الاستوائية تقع على الطرف الشمالي من الغابة . وجماعات الماند، والكيسي ، والتوما، والغِرزي، والمانون من سيرّاليون، والغينه العليا يحرثون ارضاً يجنون منها، بشكل متعادل تقريباً، الارز ، والموز، والمنيهوك، والبلح الزيتي ، والكولا ، والبن . ويمتدّ السّهب نحو الشرق مبتدئاً ببلاد الباولي، لينتهي إلى الشاطىء عند خليج الغينه، حيث يتكاثف عدد السكان، فيصل إلى مئتين للكيلومتر المربع ، في جنوب الداهومي والنيجيريا . واذا كانت الزراعة تبدو على شيء من حسن الحال، في هذا الجنوب الآهل، فذلك لحسن النظر في تتالي المزروعات للإفادة من اكثر من موسم سنويّاً، وللافادة من خصائص التبادُل مثلاً بين الفستق والذرة، وبين النبات الزاحف والنبات ذي الساق .

تمهيد التربة والزراعة والحصاد والاهتمام بها تباعاً ؛ هذه أفعال حيويّة، بالنسبة إلى الفلاح الاسود ولكنّها لا تشغله عن اتمام فروضه الدينية، التي يبدو في تفاصيلها بعض التغيّر، ولكنها كلها تبقى مترادفة إلى غاية واحدة . فهذا الانسان، العائش

في عالم فاقد المقاييس، يبذل جهداً كبيراً في مؤالفة عاداته، وتجنّب إثارة غضب القوى غير المنظورة، المستمرة في تهديد من تحيط بهم. فالاحياء ما هم غير قلّة، محدودة بعبوديّات معيّنة لكي لا تثير انقساماً في التوازن : فايّ حركة رعناء، أو إهمال، حتّى غير متعمّد، يمكن ان يكون كافياً لجرّ الجفاف عقاباً، والجفاف يجرّ الجدب والمجاعة، أو الموت. وعن هذا الشعور، او الاقتناع النفسي، تولّد اللجوء الدائم إلى الألوهة. ونتيجة لهذا اللجوء الديني كان الكثير من المذابح المقدّسة والاماكن المطهّرة، والكثير من القرابين والضحايا التي تقدّم للإله السماوي، وللأجداد المتوارين تحت الارض، او في الاشجار، اليهم كلهم او الى واحد منهم. ولا ينسون ان يتوجّهوا، بشكل عامّ، إلى كل الارواح، وإلى كل قوى الحياة المتوزّعة في الطبيعة، التي يشعر الاحياء الأصلاء العائشون على الارض، نحوها شعوراً عميقاً لا يُفسّر. انهم لا يملكون فاصلاً يقيمونه بين دينهم ودنياهم، فالتّكتل الاجتماعي طائفة دينيّة.

وهذا التكتّل الاجتماعي قائم على مبدأ القرابة : فالمتحدّرون من مصدر واحد هم اعضاء الأسرة الابويّة الواحدة، أو العائلة الممتدّة أو المتفرّعة، يؤلّفون « وحدةً طائفيّة قابلة التفصيل » خاضعة لسلطة اكبرهم سنّاً. وهذا، في نظرهم، المحافظ على طقس عبادة الموتى ؛ انه يدير جانباً مشتركاً من الارض ولكنه

لا يملكه . وسلطة البطريق تنتقل بالإرث من الاخ الاكبر إلى الاخ الثاني، ومن ثمّ، بحسب المجتمعات، من الاب إلى الابن، او من الخال إلى ابن الأخت ؛ والبنوّة المتنسبة إلى الام، التي يخضعون لموجباتها في هذه الحال، محافَظ عليها عند جماعة الأولوف وجماعة السرير من السنغال، وعند اليول غير المسلمين وفي اوساط بعض شعوب الغابات .

والكتلة الاجتماعية تضم، عادة، عائلتين او ثلاثاً ، وهم في اختلاطهم هذا يجري ترتيبهم، عند الحاجة، بموجب الأعمار . ولكنّهم، اذا ما كانوا في رياضة غابيّة، فانّ بعض البارزين يقومون بتسليم الصبيان والصبايا أسرار دينهم ، على هامش القواعد الاجتماعيّة والدينيّة، الخاصّة بالقبيلة التي ينتسبون اليها . ومدة تعليم هذه الاصول الدينيّة تتفاوت في الطول والقصر، بين مكانٍ وآخر ؛ فقد بلغت، في زمن ليس ببعيد، سبع سنوات، في كلٍّ من الغينيه العليا والشاطىء الذهبي . ومثل هذه التربية الصارمة، التي من قواعدها امتحانات جسديّة، تفرض على الفرد نظاميّة تضعه في مسالك العمل عضواً حيّاً في الطائفة التي ينتمي اليها . وكثيراً ما يكون هناك اقتطاعٌ جسديّ : كالختانة، او تضحيات مقدّسة كاقتلاع بعض الاسنان، وهكذا يبلغ متحمّل هذه الرياضة نهاية مطافه القاسي التجارب . وهذه التنظيمات يزعمون لها السريّة، وهي ليست كذلك الا بالنسبة إلى النساء

والاولاد، ولكنها، على كل حال، تبقى تسميتُها. ومعظم الأفراد يكتفون بهذه الدرجة الاولى من التعلّم الاجتماعي والديني. ولكنّ بعضهم يترّاقون في «الاسرار» فيصبحون مالكي الاسرار العظمى، فيسهرون على حماية دينهم بأمانة. ومالكو الاسرار هؤلاء يمارسون وظائفهم، غالباً، وهم في غير زيّهم العادي ومقنّعون؛ ويأخذون قراراتهم الهامّة، في لجنة سريّة برئاسة اكبر مالكي الاسرار، الذي اختاره قُداماهم وراقبوا سلوكه. فهم يوحون بالخوف لما لهم من سلطات مخفيّة، وهم ذوو علاقات بالعالم الفائق الطبيعة. ويحدث ان يتجاوز بعض الجماعات نطاقهم المعروف محليّاً، فيعرف بهذا التجاوز مالكو الاسرار، وهم في منطقة أخرى، فينقلون كلمات الامر والرسالة السريّة إلى مكان المتجاوزين. وهذا نصّ الكلمات، حسب بلاد المصدر: سيِمْو لغينه، وبورو لسيرّاليون وللسودان وللشاطىء الذهبي، وكامو لماندنغ، وأورو لبينين.

إن دور الجمعيّة السريّة الاساسي قائم في احترام العادات والأعراف، وفي تأمين السلام في القرية بفرض العقاب، الذي تصل شدّته إلى حدّ القتل. والمذنب يحاكم سريّاً، ولكنّ هذه المحاكمة تضل طريقها، فتصبح عملا مغايراً المجتمع، اذ يجعل الحاكمون، من تشديدهم في العقوبة، رعباً يمكّنهم من الاستبداد بالسلطة. ويُعرف أمثال هؤلاء بالرجال الفهود،

وبالرجال التماسيح ؛ وكل عضو جديـد يدخل هذه الجمعيات الرهيبة عليه ان يقدّم لزملائه جثة انسان، قُتِلَ غيلة، ومثّل قاتله به ميتاً، فخدّد لحمه بأظافر من حديد، مقلّداً في فعلته هذه مخالب الضواري. وفي اجتماع القبول ينتزع القاتل بعض اعضاء ضحيته ليأكلها المؤتمرون، خلال اجتماعهم الليلي، في الغابة، او ليجعلوا منها لذائذ فوق الطبيعة. وكثيراً ما يكون القاتل لا وجود له حقيقةً، فيأكل الساحر قلب او كبد ضحيّة لم يشوه شكلها الجسدي، ولكنها تترك لتنتن بسرعة. ويبدو انه من الصعب الحكم في هذه الاعمال، التي يدخلها جانب من السحر ؛ فلا يتبيّن الناظر فيها موضع الفارق بين النيّة والعمل، ليخرج الحكم على قاعدة من الصحة.

والسلطة، في هذه المجتمعات ذات الظاهر الديمقراطي، حقّ للشيوخ حماة التقاليد، المنفصلين عن الاحياء، والآخذين في الاختلاط بالأجداد. والقرية تؤلف وحدة اداريّة يتسلمها رئيس يتكلم باسم مجلس أعيان ؛ أو انه يستمدّ سلطته من رئيس أعلى، صنعت منه الادارة الاستعمارية رئيس المنطقة، ان لم تكن قد خلقته.

أمّا في السودان الغربي فالتشكيل الاجتماعي مختلفٌ جداً ؛ وذلك بتأثير الامبراطوريات الكبيرة امثال: غانا، ومالي، وسونغاي. والتسلسل الاجتماعي هنا ملحوظ بشكل بارز، وهو

تسلسلٌ ينطوي على تنظيم سياسي حقيقي . فرئيس المنطقة يستمدّ سلطته من ممثّل الملك في الولاية التي هو حاكمها واحد كبار المقرّبين في البلاط ، والدخول في الحاشية الملكيّة يعتبر انعكاساً لهيبة الدولة . وهكذا كانت السلطة من اعلاها إلى ادناها تشبه هرماً : رأسه الملك ، وجوانبه امراء المقاطعات ، وقاعدته رؤساء المناطق ؛ ومناعة هذا الهرم في رأسه لا في اي مكان آخر . وتأثير الاسلام بدا واضح المعالم ، ولاسيما في ما يتعلق بقضيّة المرأة المنكفئة عن الظهور . والعمل في الارض عملٌ عامّ ؛ ولكنّ المجتمعات المؤلفة من السود ــ البول ، من سكان فوتاتورو ، وفوتا ــ ديالون ، وسوكوتو ، أداماواي ، تعتبر الاعمال الزراعيّة تحقيراً للقائمين بها ؛ فالارستقراطي بطّال ، ومحارب ومروّض خيل ، يترك الحقل للعبيد . وكذلك الاعمال اليدويّة الاخرى المتناولة : النحاس ، والفخار ، والنسيج ، والدباغة ، والخشب ، كلها ايضاً نازلة عن مقام الاحترام ، يُعهد بها إلى طبقة الصنّاع . وللحدّاد منزلة خاصّة بين محترفي الاعمال اليدويّة ، فهو احياناً مهيب الجانب ، واحياناً محتقر ، وهو ، على الغالب ، موضع احتقار ومهابة في آن واحد . ومهابة الحدّاد وليدة الاسطورة التي تجعل من الجد الاعلى للحدّادين بطلاً ممدّناً حمل إلى الناس ، مع تعريفهم المعادن ، ممارسة تقنيّات مختلفة . وفي الاسفل ، عند قاعدة السلّم ، الموسيقيّون ، المقيمون منهم والجوّابون ، والمهرّجون والطفيليّون المختصّون بالتّسرية عن الملك ، وبانشاده المدائح .

وفي مجرى العصور، تمكّن التنظيم السياسي من الترجيح: من طرف إلى آخر، من القرية التي كانت مستقلة إلى المملكة الاقطاعيّة. يقول ابن بطوطة: عند وصول الاوروبيين، لم يبقَ من سليل بورمالي، الذي كانت امبراطوريته تعتبر قاعدةً للدولة الاقطاعية، بعد اربعة أجيال، غير رئيس قرية بسيط؛ ومن كل التنظيمات السياسيّة لم يسلم غير مبدأ التكتّل باسم القرابة الدموية، قرابة الاب، على أرض واحدة، هي ارض المحلّة الابويّة. ولكن الملمح العامّ لسياسة مالي كان كما هي اليوم سياسة كل بلاد السهوب، في ماندنغ، التي تقدّم شعباً خليطاً، تتراكم فيه قرى ماندنغ، وتوكولور، وپول او سراكولي. فبينما ترى الواحدة من هذه القرى تدين بالاسلام، ترى جارتها ترفضه، وبينما ترى قرية ثالثة تُعنى بتربية المواشي ترى الرابعة، إلى جانبها لا تعرف ما هو الحليب. وهنا كوخ مستديرٌ ذو سقف من قشّ يواجه بيتاً مكعّباً ذا سطح. غير انّ الماندنغ احتفظوا بارستقراطيّة يُستدعى منها إلى رئاسة المناطق مسلمون، بينما، في مجمل البلاد، استمرّت «عبادة الحيوان».

والسّونْغايي يقدّمون، للناظر في وضعهم، المركّبَ البيئي المعيشي نفسه. والأرستقراطيّة التي كانت فيما مضى تسيطر على كل وادي النيجر، من جيني إلى ما بعد غاوُ، تلقّحت بعناصر عربيّة، واسبانية مغربية (الأرما)، وأخرى سَركوليّة. والطبقات

السفلى تتألف من السكان الاصليين بجيرما ؛ والداندي في شمال الداهومي على قربى تربطهم بالسونغاي . وقوافل هؤلاء ما تزال تنقل ملح الصحراء إلى كل اسواق السودان .

ان شعب المليون والاربع مئة ألف موسي يؤلفون دولتين اقطاعيتين، عاصمتاهما : أواغادوغا وأواهيغويا . والموغو — نابا ملك مستبد يوحي إلى افراد رعيته باحترام يوشك ان يكون دينياً، وله مجلس وزراء يساعده في السلطة على شعب جامع طبائع مختلفة لا لحمة بينها . وقد نجحت ارستقراطية هذا الشعب ان تؤمن له الأمن الداخلي، وان تدفع عنه كل اعتداء خارجي. ومن الاعيان تتألف ملاكات الادارة، ومنهم رؤساء القرى، والمناطق، والولايات . وتحت إمرتهم تعيش جماعات من الفلاحين والحرفيين الصناع : منهم الحدادون ، ونساؤهم بوابات، والصاغة ، والنجارون، وصانعو السلال، والصياغون ؛ واخيراً العبيد. وتدبير شؤون الماشية موكول إلى البول الذين يستعينون بأسراهم في ما شق منها . اما التجارة فلها اختصاصيون بها . وقد عرف الموسيون دول الماندنغ والسونغاي ؛ فصمدوا لهم، ولكنهم كانوا يقلدون مؤسسات اعدائهم . والمناطق التي يعيشون فيها اليوم كثف سكانها ؛ ويقدر عدد الموسيين، العائشين خارج بلادهم، بخمسمئة الف، أكثرهم في البلاد المجاورة الشاطىء العاجي وغانا .

وفي الداهومي تعيش جماعات الفون، وفي جنوب نيجيريا جماعات اليوروبا، الذين استعمروا البلاد بشكل فريد. فكان هناك عاهل مطلق، هو ملك أبومي، وهو، مبدئياً، المالك الوحيد لأرض مملكته. وكان اعضاء عائلته الملكيّة يتمتّعون بشروط قانونية مميّزة، ولكنّها، على كلّ حال، كانت توجب عليهم ان يمتثلوا لإدارة البلاد. والملك كان يعيّن كبار موظّفيه؛ عددهم سبعة، ولكنّه يتضاعف بنسائهم اللواتي يتقدّمن الرجال في الاحتفالات الرسميّة. وكانت ادارة البلاد في عهدة رؤسائها، رؤساء القرى، ورؤساء الأحياء. وكان لكل فئة اجتماعيّة نظامها الخاص بها: كرجال القانون، وخدّام الملك، وضبّاط الجيش؛ وتحت هؤلاء سواد الشعب، والفلاحون البسطاء؛ وفي الطرف الأدنى المحكومون قضائيّاً، والمجرّدون من حقوقهم المدنيّة؛ أمّا طرف الطرف فالأرقّاء ثم العبيد.

ومقابل هذه السلسلة المتدرّجة الحلقات إلى تحت، كان هنالك في الأعلى مجمع عظماء يشتمل على كثير من عائلات الألهة، لكلّ منها مهمّة معيّنة. ولكنّ هذا الاختصاص، في العقائد وفي الطقوس الدينيّة، كان متناهياً في التوزيع حتّى اصبح لكل داهوميّ مذهب ديني وطائفة محدودة، تقرّ بعبادة إله معيّن. وفي قمة مجمع العظماء هذا مبدأ الثنائيّة ليزا ماوي المقابل لقسمي: الغرب/ الشرق، القمر / الشمس، الرجل / المرأة، إلى آخره؛

وكثيرا ما يكون ليزا / ماوي معتبراً وحدةً تجمع الجنسين : الذكر والانثى . وهذا الخالق المعبود قسم الدنيا بين ابنائه الاربعة عشر، معطياً كلاً منهم حصّة خاصة . من هذه الحصص : السماء، والارض، والمطر ... وهؤلاء الآلهة، من السلالة الأولى، قسّموا سلطتهم بين ابنائهم، الذين لا يحصون : فالمطر المخصب، والمطر الهطّال، ودويّ الرعد المستمرّ، وقصفة الرعد المفاجىء ... لكلّ من هذه الحالات الطبيعيّة ، إلهها المسؤول . وإلى هذه الآلهة أضيفت آلهة الشعوب التابعة، مثل « دا » الأفعى، سلطته تتناول مبدأ الحركة والحياة، صفة كلّ ما هو مَرِن، ومتعرّج، ورطب...؛ ومثل « كِنْزِڤيوزو » الصاعقة . وكلّ فئة من هذه الآلهة تُدعى ڤودو، ولها ميثولوجيتّها الخاصة، وعبادتها، وهيا كلها؛ ولها ايضاً كهّانها والمكرّسون لها، ، وسواء أكانوا نساءً أم رجالاً فانّ تسميتهم تعرف بِـ « نساء الڤودو » . والموتى المؤلّهون، توڤودو، هم الوسطاء المجبرون بين الأحياء والآلهة، والموتى ذوو الدم الملكيّ يؤلّفون فئة خاصة، يعبدها الامراء الاحياء وحدهم، فلا يستطيعون ان يكونوا جزءاً من أيّة مدرسة أخرى . والاحتفالات الدينيّة تجري في تآريخ يسبق تحديدها . فعند موت احد المستلمين دينَهم، ينزل الاله، في مجرى احد هذه الاحتفالات، على رأس الخلَف، الذي يدخل في حالة التألّه ؛ ويسبق الرياضة في « حظيرة الارواح » او « دير الڤودو » تمثيل موت ؛ ثم تجري الرياضة فتكون مدتها ثلاث سنوات للبنات وتسعة اشهر للبنين ؛

وتنتهي هذه الرياضة بقيامة حقيقية . ثم تُلحق برياضة أقصر هي نوع من الهبوط إلى جهنّم لجمع مستلمي دينهم في كل سنة. وعلى هذه الطقوس الدينيّة العامّة، او نصف العامّة، تتراكم طقوس خاصّة تأتي غالباً من الخارج . ومجمل هذا المستورد من الطقوس يترجم رؤيا تتناول عالماً ذا غنى لا يُحدّ ؛ ودرس اجراءاتها يبدو اكثر حيويّة في طرقها التعبيريّة الرمزيّة، القائمة على اسلوب يماثل اللعب بالكلمات : من استعارات وجناس لفظي، تثير كل شيء ولا تعني شيئاً . وهوذا نحن بعيدون جداً عن البدائيّة . ومثل هذا ليس شيئاً فريداً في افريقيا السوداء .

٨ ـ الصحراء

سكان الصحراء، من أصناف بشريّة مختلفة، ومتكلّمو لغات متعدّدة، لذلك ليس لهم حضارة واحدة وانما يتحرّى اتجاهاتهم شاغل واحد : تربية الجمال لحرب التقليّات . ودينهم الاسلام ولكنّه إسلامٌ نازلٌ عن حقيقته في بعض الاماكن والاحيان .

المغاربة يشغلون الغرب . وهم سكان موريتانيا، والسّنغال، والسودان، يبلغون عدداً تقريبيّاً اربعمئة وخمسين الفاً، موزّعين على قبائل متعدّدة، كلّها متخاصمة . ففي السهل نجد مربّي الماشية المنتجعين المراعي تبعاً للفصول يقودون قطعانهم البقريّة،

للاشتاء، في الشمال، ولقضاء فصل الجفاف، في الجنوب . وفي اقاصي الشمال يعيش الرُحّل الجمّالون، وهم من اصل بربري يُعرف بـِ « زيناغا » . وفي نهاية القرون الوسطى، أجبرهم « عرب الحسن» على نزع الحجاب، دون ان تتلاشى كل التقاليد البربريّة، ولاسيّما الحرية الكبيرة النسائية .

ويترجم التسلسلَ الاجتماعيّ وجودُ ارستقراطيّة محاربة، تُدعى « الحسن » وتسيطر على قبائل الرعاة القبليين . ويسكن الواحات « المرابطون »، وهم جماعات مثقّفون، وتجار، واغنياء ؛ كما يسكنها ايضا زارعون سود، عبيد او مُعتَقون. وفي الواحات القديمة الجنوبيّة يقطن جماعات من الأتار، وأوالاتا، والنيما ؛ وهؤلاء عُرفوا انهم خمائر اسلاميّة خمّرت كثيرين، وعدداً كبيراً من المرابطين، الذين لا يتعدّى اكثرهم كونهم مغامرين تجّاراً، بضاعتهم طلاسم عجيبة، أو منزلة محظوظة عند سيّد شهير . وصفة التجّار مسيطرة فيهم على صفة الناس الاتقياء، ولذا فانهم يجوبون الطرق التجاريّة الطويلة، مثل طريق الكولا، التي تؤدّي بهم إلى غابة شاطئ العاج . وبوصفهم تجّاراً يجتمعون في جاليات في الاوساط التجاريّة . والمور، أي برابرة الشمال، كانوا في علاقات دائمة بالجنوب المغربي، وهذا السبيل الذي ترسّمته القوافل، إلى مصانع الملح في جبال إيدْجيل،

ما يزال مطروقاً إلى اليوم . ولكنّ اسلام المور انخفضت حيويّته منذ ايّام المرابطين .

وليس بمستعبدٍ أن يكون الطواريج ، الآتون من الشمال، حيث كان بعضهمّ يعتقدون انهم سيلقون أخلاف الغارامنت، قد توغّلوا في الصحراء، حتّى ليُظن انهم بلغوا النيجر ، منذ عصور كثيرة قبل التاريخ المسيحي . وعدد هؤلاء يبلغ اليوم اربع مئة الف في مالي وفي النيجر ، مقابل عشرة آلاف أو أقل في الصحراء . طواريج الهوچار ، والأجيّر ، والايّير ، والأدرار ، كلّ جماعة منهم لها رئيسها، المدعوّ أمينوكال، ينتخبه الأعيان، ولكنّ سلطته الفعليّة محدودة . وهذه القبائل سواء أكانت من الاعيان « إيموهار » او من الأتباع « إمْراد »، فانّ لكل منها عبيده السود . وكان التبادُل القائم بين الأعيان والاتباع يقتضي ان يؤمن الاعيان حماية اتباعهم، بينما هؤلاء يعتنون بقطعان اسيادهم : من الغنم، والماعز، والجمال . وعلاوة على التمر، كان الغذاء يتألّف من الحليب، والسمن، والجبن، وخاصّة من مغلّيات الحبوب – الذرة وقليل من القمح او الأرز – وهي حبوب تؤمّن بعضها زراعة العبيد في الواحات الجبليّة ؛ أمّا اكثرها فمؤمّن عن طريق المقايضة، في اسواق السودان . وأمّا اللحم فهو ترف . وكانت نظرتهم إلى الحدّادين نظرة احتقار يخالطه الحذر من سلطاتهم السّحرية ؛ ففي زِعمهم أن

الحدّادين متحدّرون من صُنّاع قدامى يهود من توات ؛ أرغموا، في القرن الخامس عشر، على الهرب إلى السودان، حيث صهرهم الزواج. وتُصنع خيامهم من جلود الأكباش البريّة، أو الثيران، او المعزى السودانيّة، موصول بعضها إلى البعض الآخر ومشدودة إلى اوتاد مغروزة في الارض. وفي مستوطنات الأيير تظهر الاكواخ النصف دائريّة، ذات الجدران والسقوف الحصريّة. ويتميّز الرجال بكوفيّات يعتمرون بها دائماً، ولكنّ اعتمارها خاصّ بمكتملي الرجولة. والسلاح عندهم يتناول السيف ذا القبضة الصليبيّة، والمِجنّ الحديدي، والحراب، والخنجر المشدود إلى المعصم بحلقة، والتّرس المصنوع من جلد الأيّل.

وعلى الرغم من وجود حكومة أبويّة، مماثلة، مبدئيّاً، حكومة القبيلة العربيّة، فان النساء يتمتّعن بحرية تامّة، فيساهمن في الحياة العامّة ؛ وينتقين الزوج، الزوج الواحد ؛ ويُدرن ممتلكاتهنّ بأنفسهنّ ؛ ولا يلبسن الحجاب. ووضع الاولاد الاجتماعيّ يحدّده وضعُ الأمّ. والترجيّون مسلمون بالاسم والصفة، ولكنّهم يحتفظون بممارسة افعال، وبالابقاء على عقائد، لا يقرّها الاسلام. لغتهم التّاماشيك لغة بربريّة محكيّة؛ وحروف التّيفينار هي الألفباء البربريّة المستعملة ؛ ولكنّ معرفة هذه اللغة، في بعض القبائل، وربّما في اكثرها، اصبحت مقتصرة على النساء العجائز، في ايامنا هذه.

يبدو أنّ توطيد السلام في الصحراء، وتحريم الغزو، قد لغما حياة التّرجيين، الذين لم يخضعوا للحياة الجديدة بسهولة. فيبدون، وكأنهم، أمسِ، اتّجهوا إلى تربية المواشي اتجاها كليّاً، وكأنهم ايضاً، البارحة، راحوا ينشرون تجارة القوافل. ولكن، ماذا كانت نتائج اكتشاف الثّروات الدّفينة في جوف الارض الصحراويّة على هؤلاء الواقفين بين قديمٍ وجديد؟

خرج هؤلاء الرحّل الكبار من وسطهم البغيض واستقرّوا فوراً، وراحوا ينصهرون بالتزاوج. من هنا، على ما يُظن، طلعت الاساطير تحكي عن تأسيس امبراطوريّات سودانيّة قام به جماعات من البيض، وكيف جاءت سلالة سوداء تحتلّ مكان اولئك البيض.

التّوبو او التّيبو جماعات قليلة العدد تستوطن الأيير، على النيجر، والسهول المجاورة، من الفزّان إلى التشاد. والجبل يزيد علوه في بعض النقاط على ٣٠٠٠ مترٍ، وهذا العلو، بالاضافة إلى الوسط الصحراوي، يولّدان تبايناً هائلاً في تقلّبات الطقس. فالشتاء القاسي جدّاً لا يفسح الاّ لزراعات هزيلة، في بعض الاودية غير الموجّهة للعواصف؛ والمجاعة مرض دائمٌ، وكل رجل يجب أن يملك عدّة بساتين، في أماكن مختلفة لكي يتمكّن من تأمين قوته. وتنطلق قوافل التّوبو من الواحات الليبيّة إلى الاماكن المجاورة بحيرة التشاد. أمّا شراذم الدّاذا، في

الجنوب، فانها تنصهر بالتزاوج والسود السودانيين، لتؤلّف فئة مربّي الابقار. وعُرف التوبو، ايضا، انهم شعب قويّ اعطى قانيم قوّته العسكريّة في القرن السادس عشر. وقد تميّزوا بعداوة الطواريج بالوراثة، وبانّ الاسلام دينهم الرسمي.

كل اهتمام البدو، في صحراء ليبيا، ينصبّ على العناية بالجمال وعلى إعداد القوافل. واذا كان المستوى المادّي يبدو عندهم اعلى ممّا هو عند جيرانهم، بفضل الجُهد العملي الذي يؤمّنه العبيد السود في الواحات، فان نوع حياتهم ليس مختلفاً عن نوع الحياة عند غيرهم من العائشين في الصحراء.

٩ ــ السودان

السودان الأوسط يقع في شرق التشاد، وهو اقليم نصف صحراوي، يسكنه جماعات من الرحّل. وكبابيش الكوردفان، وبيدجا ساحل البحر الاحمر، يقضون حياة تُذكّر بحياة الساميين الأقدمين في الجزيرة العربيّة. ومع انّ الأمطار قليلة جدّاً لكنها تُبقي على تربية المواشي : الجمال، والغنم، والمعزى، والخيل؛ وهكذا تتولّد حياة، فيها من اعتماد الرحلات الدائمة على طريقة كبار الرحّل في الصحراء، كما انّ فيها من مؤالفة انتجاع المراعي على سبل مربّي الماشية في شرق افريقيا. فمن تموز إلى

ايلول يستمرّ البحث عن المراعي، فتتفرّق القبائل في كل صوب، لتعود فتجتمع حول الماء في واحات صغيرة، تبعاً لنظام فصليّ تتابع الحلقات، على غرار ما كان يجري لقبائل التوراة. وقُماش الخيام نسيج من وبر الجمال تحوكه النساء على الطريقة التي ما تزال متّبعة عند بدو الجزيرة العربيّة. ولهم في تناول الحليب توزيع يلفت النظر: فالرجال لهم حليب النّوق، والنساء حليب البقر، والاولاد حليب المعزى. ولحم الغنم طعام شائع الاستعمال، ولكنّ لحم الجمال لا يأكلونه الا في ولائمهم الرسميّة، حيث يذبحون الجمل احتفالاً بالمناسبة. ومحاصيلهم الزراعية قليلة جدّاً، فيسدّون حاجتهم إلى الحبوب بما يشترونه من جيرانهم الحضر. ولهم نظام خاصّ بالمسؤوليّة الجماعيّة يصبح بموجبه كلّ رجل، في قبيلة قُتل احد افرادها، في حالة حرب ضدّ كل رجل في قبيلة القاتل. وسلطة الرجال ومسؤوليتهم في هذا النظام القبليّ، الذي يرأس فيه كلّ قبيلة رجلها المقدّم سنّاً، تعطي شيخ القبيلة حقّ فرض العقوبات وبينها عقوبة الموت. والمرأة الراشدة يمكن أن يقتلها، قانوناً، أخوها، لا زوجها، الذي ان فعل ذلك، فأخوتها يثأرون منه. ولكنّ هناك بقيّة من نظام ترئيس الأمّ، أقدم من نظام ترئيس الأب، ما تزال موجودة هذا موجزها: الصهر يقيم إلى جانب أهل زوجته مدّة السنة الأولى للزواج، وتستطيع الحماة ان تعترض عند نهاية السنة على ذهاب ابنتها مع

من تزوّجها . والصيغة النهائيّة لقطع قرابة الزواج تبقى في حيّز الوصف اكثر منها في الواقع ، لذلك فهم يوصون بالزواج ، يجمع بين ابناء الأعمام وبناتهم ؛ ولكنّ هذا المفضّل من وجوه الزواج هو عموماً امرٌ ممنوع عند السود . والنساء لا يتحجّبن ، ولكنّهن يغطّين الفم امام الغريب . وبين السادسة والتاسعة من العمر تُجرى عمليّة الختانة على الصبيان ؛ كما يخضعون البنات بين الثالثة والسادسة من العمر لعمليّة قطع أنملة ، ولخياطة الفرج ، التي تبقى حتى الزواج ؛ ومن هنا كانت التسمية : بنات « مخيطات »

والكبابيش مسلمون يتزيّنون بأشياء كثيرة منها : الحرز القرآني ، وهو عبارة عن آية قرآنيّة تُحتفظ طيّ رقعة من جلد ؛ ومنها التبرُّك ببعض شعرات من رجل ذي قوى فوق الطبيعة ، تُطوى عليها رقعة من جلد ، ايضاً ، وبهذه او تلك يكتشفون مخبأ لصّ او يهتدون إلى جمل ضائع . ويدفنون موتاهم ، ومكّةُ قبلتُهم ؛ ثم يُحيون ذكرى الميت ، بعد سنة على وفاته ، وفي هذه الذكرى ينحرون ناقتين ليأكل لحمهما الأباعد ، اما ذوو القرابة فمحرّم عليهم الأكل منه .

وهناك عادات أخرى إسلاميّة غير أنّ العمل بموجبها غير جارٍ بصورة تامّة ؛ ولكنها أضيفت إلى التراث الساميّ القديم .

١٠ – افريقيا الشمالية

المجتمعات البربريّة، في افريقيا الشمالية، لم يكن إسلامها معمّماً؛ لأنّها، على الرغم من اعتمادها العربيّة لغة لها، احتفظت بنوعيّة حياة خاصّة بها. وهاكم ما يقول ج. وُليرس: هناك منطقة الفلاح... التي ينطبق شكلها انطباقا يكاد يكون كاملاً على مناخ الانفتاح العربي المسلم: لأنّ المسلم العربي والفلاح صفتان تلازمتا إلى غير انفصال، والأولى مأخوذة من الثانية ... ولنا في الشرق الادنى، ومصر، والمغرب شواهد ماثلة تقدّم النموذج البشري الحقلي، في كل من هذه الأقاليم، مشابهاً زميله في الاقليمين الآخرين، على الرغم من المفارق التاريخيّة والجغرافيّة، بينما نراه على العكس في البلاد المجاورة الأخرى.

تقوم الجزر الزراعيّة، البربريّة على منحدرات الجبل، مشتملةً على مدرّجات تحضن تربتها حجارة صلبة؛ وهذه الجزر البربرية في الجزائر والمغرب، يزرع فلاحوها، كزملائهم المستعربين، البُرّ، والقمح، والشعير، بواسطة ادوات زراعيّة مشتركة في كل عالم حوض البحر المتوسّط. واشهر هذه الادوات السكة من غير مقدّم، والمنجل المنشار؛ وفي بعض المناطق

المحافظة، كسفوح أوريس، ما يزالون يستعملون النّورج لدراسة الحبوب . وحيث المنطقة تكون ذات كفايات طبيعيّة تظهر زراعة الاشجار المثمرة : كالزيتون، والتين، واللوز، والكرمة او النخل . وتربية الغنم والماعز تلعب دوراً هاماً، ولا فرق في هذا الدور عند الرحّل، وأنصاف الرحّل، والمقيمين الدائمين . ويعتمدون في غذائهم على الحليب، وزيت الزيتون، والسمن تسقي مغليّاتهم من الحبوب، وعلى طعام الهريس [1] في أيّام الاعياد . اشكال بيوتهم مربّعة ذات سطح، مبنيّة من حجر وطين . والسقف موطّأ بقِصاعٍ [2] مطليّة بالشّيد [3] . واذا أبعدت نحو الجنوب، تجد البيوت مبنية من قرميد بدلاً من الحجر، كما هي الحال في السودان . أمّا المآذن فمنها ما هو مربّع الأضلاع او مسدّسها ، نموذجها مغربي ، وهي على عكس الأشكال التركيّة، التي نجدها في تونس، قائمة في مستطيلٍ اسطواني، ذي سقف له شرفةٌ دائريّة الشكل، تعلوها تويجات معدنيّة مخروطيّة . ونساء البرابرة تعمل في الحياكة على أنوال عموديّة، انتاجهنّ الاساسي السجّاد والبرانس ؛ والرجال يعملون على انوال أفقيّة تُدار بالرّجل، فيحيكون الأقمشة الناعمة . وما تزال صناعة دبغ

---

(١) الهريس او الهريسة طعام يطبخ من القمح واللحم (المترجم) .

(٢) قصاع جمع قصعة وهي قطع الخشب التي تحتضن السطح (المترجم) .

(٣) الشيد خليط المواد التي يطلى بها داخل المنزل (المترجم) .

الجلود قيد الاعتماد حتّى اليوم، عند الطواريج، ولكنها خضعت لتأثير الصنّاع العرب؛ فأدخلوا عليها التطريز

والتنظيم السياسي في بلاد البرابرة يعتمد العائلة الابويّة او التسلسل في الأسرة التي تشغل بيتاً؛ واربعة او خمسة بيوت تؤلّف قرية، وعدّة قرى تؤلّف دسكرة مستقلّة استقلالاً ذاتيّاً؛ وفي الوسط السكنيّ خزائن المؤن الجماعيّة وسوق البيع والشراء. والمجلس السياسي للدسكرة يجمع رؤساء السنّ.

ومع الفتح العربي احتلّ الاسلام بـلاد البرابرة فأسلموا، ولكنّ نفوسهم لم تتحوّل عن بعض ما ألفته، فذكريات دينهم السابق استمرّت تحيي طقوسهم التي نشأووا عليها، ولاسيّما نار أطول نهار في السنة « Solstice d'été »[1]، يشعلونها في ٢٤ حزيران، في الريف، وهي نار جرت العادة ان يقفزوا من فوقها؛ او في ذكرى عاشوراء[2]، التي كانت تدوم مدّة الأيام العشرة الأول من الشهر الأوّل محرّم، وهو عيد رأس السنة الجديدة، عيد الاولاد، وعيد الموتى ايضاً. والسحر، ورُقية الحُبّ هما حيّان حتّى اليوم؛ واينما سرت في هذه البلاد تجد الاعتقاد بفعل

---

(١) Solstice d'hiver et Solstice d'été هما اليومان اللذان يقع فيهما أطول نهار في السنة صيفاً، واطول ليل في السنة شتاء: ٢١ حزيران، و ٢١ كانون الاول بوجه التقريب. (المترجم).

(٢) ذكرى عاشوراء عيد اسلامي. (المترجم).

العين الشريرة « الإصابة بالعين »، هذا الاعتقاد الذي يقاومونه بكفّ فاطمة، يحملونها تعويذة بشكل خمس اصابع ممدودة.

انها حضارة فسيفسائيّة، باطنها عناصر بربريّة، ساميّة، إسلاميّة... ملوّنة بمؤثّرات مصريّة، وفينيقيّة، ويونانية، ورومانيّة. هذا ما يثبته وجود آلة جراحة تثقب العظم، واثر الجراح بادٍ على نقطة الاتصال بين عظام الجبهة وعظمي قبّة الجمجمة؛ وهذه الآلة وما تركته من أثر وُجدت على بعض الجماجم، التي عُثر عليها في جبال أوريس، وجزُر الكناري؛ وهي تعود بنا إلى العمليّات الطبيّة والسحريّة في اوروبة الغربيّة، في ما قبل التاريخ.

الفصل الثاني

افريقيا في علاقاتها بالعالم الخارجي

عندما ننظر إلى خريطة العالم، على كرة مسطّحة، فنرى الجبال المتكتّلة على ارض القارّة الافريقيّة، والمساحات المائية الواسعة، التي تفصلها عن اميركا وعن آسيا، يلوح لنا أنّ هذه القارّة مستقلّة جغرافياً استقلالاً حقيقياً. ولكنّ افريقيا في واقعها ليست كُلاً خالصاً، منعزلاً عن باقي العالم.

ولكنّ الأراضي التي تحيط بالبحر المتوسّط، لها ملامح عائلة قديمة العهد يلفت الانتباه اليها : فبين اسبانيا والشمال الافريقي، وبين البلقان وآسيا الصغرى مشابهات لا يستطيع المراقب الاّ أن يسجّلها. والصحراء، على سعتها الهائلة، بقيت، حتى نهاية القرون الوسطى، تؤمّن ممرّاً طويلاً، كان من نتائج تأمينه المواصلات ان وصلت المؤثّرات المتوسطيّة إلى الغرب الافريقي. وقد ذكرنا من هذه بعضاً من كثير ما يزال يزداد يوماً بعد يوم. ونستطيع ان نشهد القرابة قائمة بين مصوّرات أرتيريّة او سردينيّة،

صُنعت في العهد البرونزي، وأخرى من نوعها حديثة العهد، من صنع غانا او الكاميرون. وألعاب صراع الثيران الماثلة على لوحات كريتيّة مائيّة ملوّنة، نجد مشابهاً لها كل المشابهة. في الشمال النيجيري. واخيراً، نرى كل مدار الصحراء يقطنه ناس الكهوف: فتدبير المغاور، والملاجىء تحت الصخور، لتصبح صالحة للسكن وخزانات مؤن، ممارسة مستمرّة من المغرب إلى مصر مروراً بأوريس كما بالسودان. وهذا ما يُوجب عادات حياتيّة متكافئة، وعلى الاقل، في بعض مجالات العمل، كما يدعو إلى الأخذ بوحدة حضاريّة، تسهيلاً للعلاقات وتنفيذاً للمؤثّرات.

وهذه المؤثّرات، كلّما بدت أقدم، كانت أجدر بالملاحظة. ولنتخيّل، في بعيد الزمن، المياه الغزيرة التي كانت تسقي مناطق اليوم الصحراويّة، والليبيّة، والنّوبيّة. ورجل ما قبل التاريخ ترك على صخور الصحراء والفزّان مصوّرات الحيوانات التي كانت تحيط به، والتي ليس بينها ما يعيش دون مرعى ودون ماء: كالثور، والفيل، ووحيد القرن، والاسد، والفهد. ومن تلك الصحراء الغنيّة بالمياه: انهاراً، وبحيرات، بقي لنا بعض الشواهد من مستنقعات، وينابيع. وهناك في بعض أودية الصحراء، الجافّة اليوم، ما تزال بعض ادوات حجريّة، وقطع كثيرة من فخّاريّات متنوّعة، تثبت لنا بوجودها وجوداً قديماً لفلاّحين من أهل الحضر، تولّى علماء الجيولوجيا تحديد زمانه من القدم.

وهؤلاء الحضر كانوا سوداً، وهم اجداد سكان افريقيا الوسطى : فالجمجمة التي اكتشفت في أسيلر، في المنطقة الصحراويّة، القفراء اليوم، في الشمال الشرقي من تومبوكتو، تقدّم لنا ميزات الانسان الكميت جليّة واضحة ؛ وهذه الجمجمة كانت محاطة ببقايا حفريّات أسماك، وتماسيح، وهلاميّات. واذا أوغلنا في العصور القديمة نلاحظ ان امتداد تحدّر الصنف البشري الاسود قد حمل إلينا تغيّراً كبيراً، فالصحراء لم تحدّد لنا دائماً مستوطن الزنوج من الجهة الشماليّة.

وقليلاً قليلاً نضبت المياه فنضبت معها الحياة، ولكنّ معاصري القراطجة عرفوها صحراء تعيش فيها الأفيال، وتجتاز أبعادها الخيل والبقر ؛ بينما الجمل، الذي تبدو لنا صورته غير منفصلة عن الصحراء الافريقيّة، لم يكن قد عاد اليها إلاّ في العصور الأولى للمسيحيّة. فمن الواجب، اذن أن نُعدّل تفكيرنا في الاحوال الافريقيّة، وفاقاً للمرحلة الزمنيّة التي نواجهها، وأن نتخيّل شروط حياة مختلفة عمّا ألفناه من شروط تبدو لنا غير قابلة للتغيّر.

وفي شرق القارّة نجد سواحل البحر الاحمر في تجاوب طبيعيّ، فشبه الجزيرة العربيّة يُعتبر تكملةً للصحراء. واذا ما ملنا نحو الجنوب نلقى الرياح الموسمية مساعدة على انشاء علاقات، في زمن مبكر جداً، بين شرق افريقيا، وشبه الجزيرة العربيّة،

والهند ، حتى اندونيسيا . وفي سنة ٧٢٤ ارسل ملك شيليفوش بعثةً رسميّة إلى امبراطور الصين مقدّمة له جزيةً مؤلّفةً من قزمين، وصبيّة « seng-k'i » [1] وجوقة موسيقيّة، وببغاوات ذات خمسة ألوان . وفي القرن الثامن للميلاد كان العبيد السود، اذن، قد بلغوا سومطرا؛ ذلك لأنّ شيليفوش كان ملكا على مدينة سفيريجايا في سومطرا . والبحّارة العرب كانوا يؤمّون الشاطىء الافريقي الشرقي، منذ عهد متوغّل جدّاً في الماضي .

ولا بدّ لأحداث من هذا النوع ، تجري على أصعدة مختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافاً كبيراً، من ان تسجّل، على الاقلّ، وجود علاقات تاريخيّة : بين الحضارات المتوسطيّة والآسيوية، من جهة، والافريقيّة، من جهة أخرى. أمّا تأثير مصر، على القارة السوداء، فيبقى مسألةً للمناقشة . فبعض الباحثين ينكر على السود اقلّ موهبة للاختراع ، فيزعم ان كلّ ما عرفه هؤلاء من : فنون، وصناعات، وممارسات اجتماعيّة، وطقوس دينيّة، راجعٌ في الاساس إلى ينبوع واحد، هو مصر القديمة . وهناك بعض آخر، ليس اقلّ إطلاقاً في زعمه، يكتفي

---

(١) كلمة seng-k'i محرف فارسي ل Zang ou Zingi ، استخدمها البحارة والتجار الفرس، ثم استخدمها العرب للدلالة على سود الشرق الافريقي . لا نستبعد ان يكون تعريبها كلمة زنجي (المترجم) .

بان يسجّل وجود تقنيات محدودة، او بعض المعتقدات، ويرفض ان يقبل ايّة محاولة تتناول المقارنة، ولا سيّما في الماضي .

ومع ذلك، فكلهم يعترفون ان الحضارة المصريّة فعلت، في النوبة وشرق السودان، فعلاً خالد الأثر . وانطلاقاً من ضفاف النيل، سافرت معالم حضاريّة إلى البعيد البعيد : فاستخدام النحاس، مثلاً، تسرّب، باكراً، إلى افريقيا الوسطى، بوجه الترجيح، ولا يستعبد ان يكون تسرّبه عن طريق بحر العرب، فمناجم نحاس هوفرا ليست بعيدة عن تلك الطريق . وفي فجر التاريخ، ومنذ تولّي السلالات الأولى، وصلت، ما بين مصر والسودان النيلي، تجارة العبيد، والعاج، والذهب، وجلود الفهود، والصمغ، والحيوانات الغريبة . وكانت القوافل، المؤلّفة من سود نوبيين يلتحق بها مصري مغامر، تفسح مجالاً، في ذهابها وإيابها، لمواصلات نظاميّة بين كوردوفان، ودارفور، والمناطق الكائنة في جوار التشاد .

والتقدم الذي تحقّق، منذ نهاية القرن التاسع عشر، في دراسة مصر ما قبل التاريخ، يدفع عجلة البحث إلى المضيّ صعُداً . والحفريّات التي أُحدثت، في الفيّوم وفي ما بعده نحو الجنوب، وفي وادي النيل، وفي باداري، وتازا، كشفت عن محطّات يعود تاريخها إلى بضعة قرون قبل الميلاد وقبل عهد الانسان في استعمال المعدن، حيث يتراءى لنا الزارعون الأوائل . فقد كان أولئك

الخضر يصنعون فؤوسهم من الحجر المصقول، ويحرثون التربة ويزرعون القمح والشعير، ثم يحصدون زرعهم بمناجلهم الصوانية، ويحفظون حبوبهم في خلايا، جوانبها مكسوة بالقش المجدول، وهي عبارة عن سلال ضخمة وجدت مطمورة في التراب وفي حالة سليمة تماماً؛ وعندما كانوا يريدون ان يطبخوا حبوباً لطعامهم كانوا يجرشونها قبل ان يضعوها في قدورهم الفخارية. الرجال صيادون قناصون، دجنوا الغنم والماعز. واذا ما أبعدنا ايضاً نحو الجنوب نرى أن علماء الآثار يعملون هناك، منذ ١٩٤٥، وقد كشفوا عن محطات يعود زمن انشائها إلى ما قبل التاريخ، بالقرب من الخرطوم، بعضها يذكر بما كشف عنه، في وادي النيل. وأعرق حضارة في الخرطوم من صنع الكميتيين الذين يعيشون من الصيد والقنص، يجهزون سهامهم برؤوس حجرية وخازة؛ وهم لم يعرفوا لا الزراعة ولا تربية الحيوانات؛ ولكنهم حذاق صناعة فخارية ممتازة. وقد أعقبت هذه الحضارة عصراً حجرياً مصقولاً عرف ممثلوه ان يدجنوا فصيلة من المعزى الصغيرة، ذات فكين ينتهيان في شكل اسطواني، وان يستعملوا طعوماً من صدف، وصنارات من عظم. وحلاهم من الزمرد المقطع مثبتة في حجارة او في قشر بيض النعام، المحمول من تيبستي او من الصحراء الشرقية.

اذن، هذا الحطام الفخاري المذكر بعهد ما قبل السلالات

في مصر، وُجد في بقاع متباعدة عن الصحراء ؛ في التينيري في الجنوب الغربي من الهوچار ؛ وهذه الفخّاريات وُجد معها غير الصنّارات العظميّة والطّعوم والفؤوس الحجريّة، الشبيهة بالتي عُثر عليها في حفريّات الخرطوم، ومعها رؤوس سهام وخزّازة. أمّا عمر هذه المحطات الصحراوية فلم يعرف بالضبط. ولكنّ الاختصاصيّين، الذين لا تفوتهم دقة النظر في هذا الترابط الاثريّ، يجعلون العصر الثاني (٢٥٠٠ — ٥٠٠٠ ق. م.). الصحراوي مشتقّاً من عصر ما قبل السلالات المصريّة. ولكن، اذا كنا نفترض وجود الحبوب البريّة، والماعز على هضاب الصحراء الوسطى، فاننا لا نستطيع ان نعكس العلاقات، فنفترض وجود فلاّحين ومربي ماشية، يصبح أخلافهم مشتّتين بحكم الجفاف، الذي يدفعهم دائماً من البعيد إلى الأبعد، لينتهوا في وادي النيل، على ارتفاعات متفاوتة من الخرطوم حتى مصر السفلى.

من هذه المناقشة التي تبقى مفتوحةً، نخرج بحقيقة وجود قديم جداً، على بيدر متفرّقات، يمتدّ من النيل الابيض حتى بحيرة التشاد، هو وجود عناصر نموذجيّة، من الحضارات العائدة إلى العصر الثاني الصحراوي وما يقابله قدماً في مصر. وهذا ما يفسّر، على الاقل، المشابهات المدهشة بين بعض مؤسّسات مصر القديمة والعوائد الجارية عند سكّان ضفاف النيل الأزرق اليوم.

والافريقيون، بوصفهم مربي ماشية او حرّاث ارض، كانوا في كل زمان، مساهمين في انتصار الانسان على الطبيعة. فنحن مدينون لهم بالبلح الزيتي وبالبن، كما اننا مدينون ببعض الحيوان الداجن: كالهر، والخنزير السوداني «سينّار[1]»، وبعض اجناس الكلاب؛ ويرجّح ان السود دجّنوا المعزى، والحمار، وهذا مصدره افريقي؛ والدجاجة الافريقيّة، وهذه عرفها اليونان والرومان، ثم أهملت في القرون الوسطى، في الغرب، حيث توحّشت تقريباً؛ إلى أن أعادها، إلى الظهور داجنةً، البورتغاليون، عند رجوعهم من افريقيا، في القرن السادس عشر.

ليس في هذا شيء مدهش: ففي الظاهر عُزلت افريقيا؛ والحقيقة أنّه ما من حضارة تبقى مقطوعة الصلة بالعالم الخارجي. لأنّ واقع الفتوح لا يمنع من أن يتبادل الغازي والمغزو الشؤون الفكريّة والوجوه التقنيّة، وهكذا تأسست دائماً بين المجتمعات المتجاورة مستويات متفاوتة ولكنّها لا تعدم صلةً او تشابُها في ما بينها. وهناك شيءٌ اكثر تميزاً لهؤلاء الشعوب الافريقيين قائم في مستوردات كثيرة انصهرت في الوسط السابق وجوده، فغمرها؛ ولكنّ حالات أخرى بدت على النقيض، اذ كانت الفكرة او التقنيّة المستعارة تبقى كما استعيرت فكأنها متحجّرة؛

---

(١) مدينة في السودان على النيل الازرق، سكانها اليوم ٨٠٠٠ نسمة. ولها اسمان في الفرنسية Sennar ou Sannâr (المترجم).

بينما، في اماكن أخرى، ينمو المستعار ويزدهر او يُهمل.
واخيراً، يجب ان ننظر في ما ليس اقل أهميّة من التاثيرات والمؤثرات، وهو رفضها: لأننا نقف، احياناً، في أماكن او نصل إلى أوقات، نرى فيها المجتمع رافضاً كل مستعار، فكأنه غير قابل التسرّب اليه. واشهر مرفوضات افريقيا السوداء المحراث، الذي عمّ استعماله كل بلاد حوض المتوسّط؛ وكان أن ظهر في مصر، منذ ابتداء عهد السلالة الثالثة، كآلة يجرّها ثوران. ولا يخلو جوّ الباحث من أن يجد بعض بلاد افريقيا السوداء، كالحبشة، تعتمد المحراث دون مقدم. وكذلك ضفاف الزامبيز عرفت هذا المحراث، وعرفت معه تكليف النساء جرّه بدلاً من الحيوان. وهذا ما يرويه ليفنستون[١]، ويؤكد أنّه شاهد عيان. ولكنّ الافريقيين، في كل مكان آخر من بلادهم، لا يستعملون الاّ المجرفة المعقوفة. واستعمال هذه المجرفة يتناول نوعاً من الزراعة تُعرف ارضها برقّة التربة، وبأنّ تحريكها لا يتعدّى قشرة سطحيّة رقيقة. ولكنّ غياب الآلة لم يمنع بعض سود الغينه والسودان من أن يسمّدوا حقولهم، وان يطبّقوا مبدأ الزراعات المحوريّة؛ فيؤمنوا لأنفسهم دورات زراعيّة، ومؤسّسات حضريّة.

---

(١) Livingstone مبشر ومكتشف إيكوسي (انكلترة)، (١٨١٣ – ١٨٧٣) اكتشف جنوب افريقيا ووسطها وحارب تجارة الرقيق. (المترجم)

وهناك رفض آخر، وهو يبدو في هذا الامتناع الشامل عن الأخذ باستعمال الذهب نقداً متداولاً، في المجتمعات الصّرف افريقية. أمّا سود ساحل الغينه، الذين لا بدّ ان يكونوا قد رأوا بين أيدي تجار او بحّارة اوروبيين، هذه المادّة البرّاقة، فانهم، في الوقت نفسه، لم يتصوّروا، قطعاً، أنّ هذا المعدن ممكنٌ تداوُله في معاملات تدنّسه بين افراد الجماعة؛ إنه، في نظرهم، وقفٌ على الأعيان، ويقتصر وجوده على ألاّ تتجاوز دورته التنقّليّة حدودها، ليعود فيتمركز بكلّ قطعه واشكاله بين يدي الملك. وهكذا بقي الذهب شارة امتياز اجتماعي، غارقاً في بحر من الشعارات الدينيّة. وفي غرب افريقيا كما في روديسيا، الذهب زينة وطلسم تحوّل إلى حلى؛ ولكنه لم يتلبّس الدور الاقتصادي في أي مكان من القارّة الافريقيّة، حتى مصر الكاسرة الطوق الافريقي، لم تعرفه، في دوره الاقتصاديّ الاّ بعد زمن طويل. انّه لحدث عظيم ان نحلم بالهوس التجاري الذي راود نفوس فتيان سكان غانا والداهومي؛ واذا حلمنا ايضاً أنّ أصداف كوريس [1] الاوقيانوس الهندي تُستعمل، منذ زمن طويل، كشارة تمثيل في المبادلات التجاريّة في كل افريقيا الغربيّة، ومن هناك عبرت هذه الأصداف الاطلسي مع حمولات

---

(١) «cauris» الكوريس اصداف بحرية استعملت في المبادلات التجارية؛ وكان الهنود السابقين إلى استعمالها (المترجم).

من الرقيق. وهذا الرفض لاستعمال الذهب نقداً مالياً كان، في بعضه، عملاً عفوياً قام به الأجانب: لأن الافريقيين الاصلاء فهموا بسرعة الأهمية التي يعلقها العرب والبيض، إجمالاً، على مناجم الذهب، وادركوا ايضاً العواقب التي يجرها تأخرهم في احتلال هذه المناجم.

واذا عدنا إلى أقدم الاتصالات المباشرة، بين افريقيا والخارج، تراءت لنا، في يوم تعاسة، بالنسبة إلى الاصلاء الافريقيين. فأول حكاية تاريخية، إبحار حنون حول القارة، تذكر ذبح اثنين من «الغورلا» اللذين بقي جلداهما، زمناً طويلاً، معلقين في هيكل بعل قرطاجة؛ وهذه صورة حزينة، عن العلاقات التي بدأها العالم المتمدن، منبئة بمستقبلها مع سكان الحبشة.

واستمرت هذه العلاقات، دون أدنى تعديل او تحسين حتى القرن التاسع عشر. وبعد سقوط قرطاجة وانحطاط مصر القديمة، كان الحدث الاكبر، في تاريخ افريقيا، أن غزاها الاسلام بانقلابات كبيرة، انتهت بسقوط سلالات مالكة كثيرة من الاصلاء. حقاً ان الاسلام قوض ممالك وحطم عروشاً، ولكنه أحيا تياراً من التقنيات، والفنون والعلوم، هو تراث حضارات اسيا الصغرى القديم. وحركة القوافل عرفت انطلاقاً جديداً. وغاوو وتومبوكتو، من مالي، على النيجر، اصبحتا

بفضل المسلمين وسطين تجاريين وفكريين . وحجّ البيت إلى مكة المكرمة، الذي قام به كثيرون من اتقياء السودان في معيّة ملوكهم لعب دورا هاماً في تبادل الافكار والتقنيات . وكذلك، في القرن الرابع عشر، فانّ بلاط امبراطور ماندنغ بهر من زاره من ابناء القاهرة، الذين عادوا ليطلقوا في العالم الغربيّ اسم بور Bour مالي .

وفي القرن السادس عشر حدثت تغيّرات مفاجئة أدّت إلى خراب السودان : منها تقتيل اليهود ، والغزو المغربي . وانهارت مملكة مونوموتابا، تحت ضغط الغزوات المتتابعة ؛ فالبورتغاليون جدّوا إلى بلوغ مناجم الذهب واستخراج ما فيها، ولكنهم لم يبلغوا غايتهم .

وبعد الاسلام والحرب المقدّسة، جاء تجّار الرقيق، من العرب ومن الاوروبيين، ليزيدوا في انحطاط بلاد السود . وتكفي وحدها سوق التجارة بالسود لتجرّ إلى حروب متتابعة، وتؤدّي إلى تفتيت المجتمعات التي تهدّم بعضها تلو البعض الآخر . ولم يبق من نظام سياسي لم يُقتل غير بعض الشواهد المنعزلة، التي لم يصل اليها سيف الخراب : كدول الموسّي [1] التي انجبت سلالتها اربعين ملكاً، بدأوا يحكمون، منذ اواخر القرن الحادي عشر ؛ وكمملكة الداهومي، التي تأسست في عهد لويس الثالث عشر ؛ وكأمّة

---

(١) شعوب في الفولتا العليا من الغرب الافريقي، أسسوا ممالك في القرن الثاني عشر ؛ ولكنها انهارت في القرن السادس عشر (المترجم)

الزّولو، التي كان بطلها، شاكا، يعادل في تكوينة قدّه الخارقة حدود البشر، كبار الفاتحين : فقد بقيت هيبته مهيمنة، حتّى انّ جنوده صمدوا في وجه الجيوش الانكليزيّة خمسين سنة بعد موته. وفي فقدان الأمن العام يترّكز مستوى الحياة البائسة، التي لاحظ وجودها الاوروبيّون، عند وصولهم في القرن التاسع عشر، فوصفوها في تعابير، بلغت، غالباً، حدود القساوة.

تجارة الرقيق دمّرت كيانات المجتمعات القائمة. ولكنّ هذه التجارة على بشاعتها، قد احسنت بادخالها إلى افريقيا مورّدي رزقها وثروتها الحالية : الفستق والكاكاو، وهما اليوم اضخم المحاصيل التي يُصدّرها الغرب الافريقي؛ وحيث نمت زراعة هذين النوعين من المزروعات تغيّر النظام الزراعي تغيّراً جذريّاً، على مساحات من الأرض لا حدود لها. وطمعاً بانتاج زراعيّ خصب حمل البورتغاليّون زراعة الكاكاو إلى جزيرة سان تومي؛ ومن هناك، ومن فرناندو بو، حُملت إلى غانا. وتجّار العبيد جلبوا من اميركا المقادير الأولى من الفستق، ليجعلوها طعاماً للعبيد أثناء نقلهم إلى حيث يُباعون. وعن البورتغاليين ما يزال السود محتفظين بزراعة المنيهوك وبعض انواع القلقاسيّات. وافضل ما في هذه المزروعات انها تنضج ابّان فصل الجفاف، فتنقذ حياة ألوف من البشر في أعوام المجاعات بسبب المحل. ولا

مكان هنا للتحدّث عن أنّ افريقيا مدينة لاوروبا بهذا الموسم المنقذ، لأن إدخال هذه المزروعات إلى افريقيا لم يكن يهدف إلى أي إسعاف انسانيّ . ولكنّ هذه الحسنة غير المقصودة قد طوّرت حياة السود ؛ فأصبحوا يعيرون انتباهاً إلى تكييف زراعتهم، وتحسين اساليب العناية بها، وتحديث تغذيتهم بالغلي والطبخ . واخيراً ان يقبلوا مجموعةً من التعديلات الفاعلة في تغيير كلّ حياتهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة .

ومن تتابُع تجارة الرقيق، وتجارة البضائع، ثم من إدخال زراعات تجاريّة، نشأ انقلاب جذريّ في الاقتصاد التقليدي التمويني : لانهم، في كل مكان، يطلبون المحاصيل الزراعيّة المعدّة للتصدير ليجري اخضاعها لتتابع التقلبات الطارئة على السوق العالميّة . فالاستثمارات الاوروبيّة الاستهلاكيّة لليد العاملة أثارت موضوع نقل السكان، الذين افسدوا التوازن بين الاقتصاد وتوزيع السكان .

واخيراً، يأتي دور المراقبة السياسيّة والقضائيّة التي وضعتها قوات الاستعمار في مكانها، ثم المراقبة الدينيّة، حيث نجحت الارساليّات المسيحيّة في التبشير بالانجيل، وهكذا ساهموا في تدمير السلطات التقليدية . فاذا بنا نشهد، مشاهدة العين، عالماً يمّحي، وتبدّلاً مجتمعياً يحدث .

انّ الافريقي ليس عدوّاً للتغيير، وعندنا، اليوم، الكشف

الوضّاح عن هذه الحقيقة . لأنّ له موهبة مدهشة ، تعينه على التطبّع والتأقلم ، هي سمة حيويّة لم تستطع التجارب ان تنال منها ؛ وهذه الموهبة يجب ان تتيح له ليأخذ مكانه في العالم ، هذا المكان الذي مُنع عن الوصول اليه ، زمنا طويلا . على ان يبقى هو هو قبل الإتاحة وبعدها .

فهرس

صفحة

القسم الاول

المعطيات التاريخية

القسم الثاني

المجتمعات

DENISE PAULME

LES CIVILISATIONS AFRICAINES

Traduction Arabe

de

NASSIM NASR

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris

الحضارات الافريقية

هذا الكتاب جامع لصفات لا يُشار اليها، على انها اختصاص بعلم معيّن، بعد ان أُدخلت ، على الاختصاص بالعلوم الحديثة، مشاركات ما كانت لتبدو ، منذ زمن غير بعيد، انها ذات علاقة هامّة بالموضوع الاختصاصي المعالج . وهذه المشاركات أوجب إدخالها انفتاح العصر على آفاق منها الجديد، ومنها المتجدّد .

ولعلّ هذا الكتاب، الذي يتناول كشفاً موضوعياً عن الحضارات في القارة الافريقية، من أجود المؤلّفات التي كُتبت في التعريف بصفحة من الوجود، قالوا عنها : سوداء ! ! هذا السواد التمع من ذاته فكشفٌ عن ذاته، داخلاً حلبات الحياة الحديثة ؛ فكان لا بدّ من ذرّ غبار الظلم والاهمال عن قديمه، تأصيلاً له في صراع الوجود المستمر.

كتاب فيه من الجغرافيا، والتاريخ، والاجتماع ، والاقتصاد، والسياسة، وغيرها شتاتٌ يبدو في تماسك وتآلف، حتى حيث تفرض المباعدة نفسها فرضاً . مسرح هذا كلّه قارّة فيها من ظلم الطبيعة والقدر، قبل ظلم البشر الآخرين، ما يدعو إلى شيء من هيبة الصلاة وانت تقرأ بحثاً علمياً . علمٌ ، في الكلام عليه، كثير من غرا
والاسفار، والاخطار .

كتاب فيه الكثير من إشراقة القصّة، وتشويقها، وتذويق
فيه الكثير ايضاً، من جدّية البحث العلميّ، والتقصّي الا
والحياد في نصوع المعرفة واحترام الانسان .

كتاب يقدّم نفسه لقارئه ؛ فنكتفي بالقول لتقديمه : إ
خيرٌ من ان تسمع به او تقرأ عنه

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth – Paris